الملحق الثقافي

ملحق أسبوعي يصدر كل ثلاثاء عن جريدة الثورة - العدد 1090 2022/4/5

نزار قباني: بيتنا قارورة العطر

عين السينما الساحرة

متحف ومسرح

مقهى الروضة وبقايا صور

ملف العدد

المكان ذاكرة وانتماء

أول الكلام

لبيت تخفق الأرواح فيه..

■ ديب علي حسن

المكان أول شهقة حياة أطلقتها، وأول بكاء وأول شعاع نور لفح عينيك وجسدك . .إنه بصمة الأرض في قلبك وعقلك وكلك عرفت ذلك أم لم تعرف.

المكان، هويتك جذورك، تاريخك، إنه مسقط الرأس الذي حسب نواميس الحياة تظل تحن إليه.

وأينما ابتعدت ومهما تناءت بك المسافات تحمله معك مهما كان قفراً يابساً..

ليس هذا من باب الإنشاء أبداً إنما في العالم كله هذا وفي عوالم الطيور ترى ذلك أيضاً تهاجر وتقطع آلاف الكيلو مترات ولكنها تفرد جناحيها وتعود إلى حيث الموطن الأول.

وتعرفون حكاية ميسون الكلبية التي تزوجها معاوية، وأتى بها من خيام البادية إلى قصور الشام لكنها ظلت تحن إلى ربوعها حتى سمعها ذات يوم تردد:

لَبَيْتٌ تخفِقُ الأرواحُ فيه
أحبُّ إليّ من قصرٍ مُنيفِ

وأصواتُ الرياحِ بكل فَجٍّ
أحبُّ إلي من نَقْر الدُّفوفِ

وبكْرٍ يتْبَعُ الأظْعانَ صَعْبٌ
أحبُّ إلى من بَغْلِ زَفُوفِ

وكلبٌ ينبح الطُرّاق عنّي
أحبُّ إليّ من قِطٍّ ألوفِ

ولُبْسُ عباءةٍ وتقَرُّ عيْني
أحبُّ إليّ من لِبْسِ الشُّفوفِ

وأكْلُ كُسَيْرَة في كِسْرِ بَيْتي
أحبُّ إليّ من أَكْلِ الرّغيفِ

وخَرْقٍ مِن بني عمي نحيفِ
أحبُّ إليّ من عِلْجٍ عليفِ

خشونَةُ عِيشتي في البدْو أشهى
إلى نفسي من العيشِ الظّريفِ

فما أبْغي سوى وطني بديلا
فحسبي ذاكَ من وطن شريف.

وحب الديار ليس حب الحجارة والتراب فقط إنما حب ما عاشه ويعيشه الإنسان فيه وهذا ما عبّر عنه مجنون ليلى بقوله:

أَمُرُّ عَلى الدِيارِ دِيارِ لَيلى
أُقَبِّلَ ذا الجِدارَ وَذا الجِدارا

وَما حُبُّ الدِيارِ شَغَفنَ قَلبي
وَلَكِن حُبُّ مَن سَكَنَ الدِيارا.

ملفنا اليوم يفتح نقاشاً من كوة صغيرة حول المكان ودوره عبقريته كما تحدث عنها المصري جمال حمدان ..

المكان في الإبداع شعراً رواية فنا المكان مقهى ورصيف وغابات وغير ذلك . .ماذا لو تم اقتلاعك منه ...؟ أقرأ مذكرات الراحل إدوارد سعيد (خارج المكان) لتعرف مقدار ما يحل بك من ألم ..

المكان وعاء الزمن ولا زمان بلا مكان ولا مكان بلا زمن.

إنها معادلة الزمنكانية فماذا في طياتها ..انها إضاءات سريعة بمجرة بلا حدود.

تاريخ وحضارة

سورية متحف في الهواء الطلق، أكثر من عشرة آلاف موقع أثري، مدن وحضارات تتالت ومازال نداها باقياً، عمارتها، مدنها، أسواقها، قرون توالت وهي غضة بهية، ومهما نقب العلماء فلن يصلوا إلى نهايات، لهذا نرى كل يوم دراسة جديدة حول تاريخها وفي هذا المنحى يأتي كتاب (تاريخ العمارة في سورية القديمة منذ نشوئها حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد)، تأليف: د.عُلا المهدي التونسي. الذي صدر حديثاً عن وزارة الثقافة – المديرية العامة للآثار والمتاحف، بالتعاون مع مركز الباسل للبحث العلمي، تقول المؤلفة:

تركت لنا الممالك السورية القديمة نصوصاً كتابية، سمحت لنا بالتعرّف على الكثير من الملامح الحضارية السورية. ولكن يبقى للعمارة دور بارز في توضيح خصائص تلك الحضارة الاستثنائية. فقد نشأت خلال العصور التاريخية الباكرة ملامح وتقاليد حضارية يبرزها تخطيط المدن المنتظم وتطور العمران بشكل عام، وتنوّع أشكاله. ونشوء طرز معمارية متنوعة، وخاصة بها، ميّزت تحصينات المدن فيها، والأبنية السكنية. كما كانت هناك تقاليد معمارية خاصة بُنيت وفقها القصور السورية والأبنية الدينية والإدارية. وهو الأمر الذي يؤكد على الدور الحضاري الكبير الذي مارسته سورية على الرغم من افتقارها لسلطات عسكرية قوية (إمبراطوريات) شأن الدول الكثيرة التي نشأت في بلاد ما بين النهرين (كالدولة الأكادية والآشورية والبابلية)، أو في بلاد الأناضول (الدولة الحثية)، أو في مصر الفرعونية.

كتاب (تاريخ العمارة في سورية القديمة منذ نشوئها حتى نهاية الألف الثاني قبل الميلاد)، تأليف: د.عُلا المهدي التونسي، يقع في ٢٥٤ صفحة من القطع الكبير، صادر حديثاً عن المديرية العامة للآثار والمتاحف، بالتعاون مع مركز الباسل للبحث العلمي عام ٢٠٢٢

معرض

إبداعات شابة

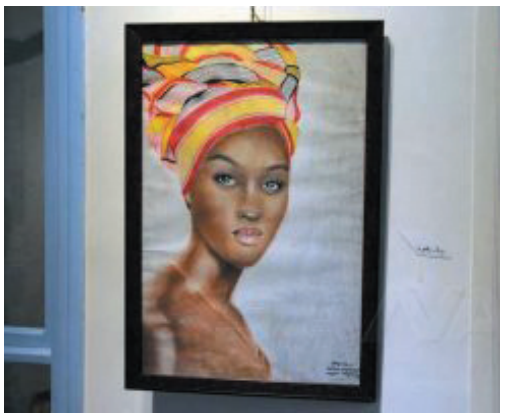

يمثل الشباب جيلاً من التوثب والقدرة على اختراق المألوف والعادي وصولاً إلى ما هو جديد، في فنون الإبداع كافة ومنها الفن التشكيلي الذي ترفده أجيال تعمل دائماً على تقديم الأصيل والجديد، من هنا يأتي المعرض الذي قدمه يافعون سوريون ومن خلاله قدموا رؤيتهم النقية للعالم من حولهم ومواهبهم الفنية الخصبة بريشتهم وألوانهم في معرض الرسم والنحت الذي استضافه غاليري زوايا بدمشق تحت عنوان «شمس سورية».

المعرض الذي أقيم بمناسبة أعياد آذار ورأس السنة السورية أكيتو تضمن أعمالاً لليافعين نينار زهوة وبيدرو نداف وبمشاركة شام زيدان وشهد قصيباتي ونزار نصره وحمل رغبة حقيقية من القائمين على المعرض في رعاية مواهب اليافعين وتشجيعهم وتعزيز ملكاتهم الفنية.

وعرض بيدرو نداف ذو الـ ١٤ ربيعاً ١١ لوحة رسمها بمخيلته لرموز من الحياة والطبيعة والحضارات القديمة كما شارك بـ ٥ مجسمات خشبية تميز إحداها باستخدامه ألواناً استخرجها من حجارة رسوبية خاصة عمل على طحنها في البداية جيداً ثم حلها في الماء واستخدم الرسوبيات التي تشكلت في القاع كألوان خطها على القطعة الخشبية.

أما المرأة فكانت جل اهتمام اليافعة نينار زهوة بين لوحاتها الـ ١٧ التي أنجزتها على مدى سنتين تقريباً بأقلام الرصاص والفحم معتمدة على تقنية الظل والتظليل لتوضح أن قوة المرأة تتخطى حدود الشكل كما تطرقت لأشكال التنمر ولاسيما القائمة على اللون والعرق إضافة إلى لوحتين حروفيتين من الخط الديواني.

وظهر تأثر الفنانة اليافعة شهد زيدان ذات الـ ١٤ عاماً بالفنان العالمي بيبرس والتي صورت الطبيعة بمختلف الأوقات على لوحات قماشية بألوان اكريليك وتميزت بقدرتها على إيصال أفكارها ضمن حدود اللوحة الصغيرة وتدرجت اللوحات التي أنجزتها في مدة زمنية قصيرة مع تطور أسلوبها في دمج الألوان وتدرجاتها.

وكان المعرض بمنزلة فسحة سماوية لمواهب صغيرة لتبصر النور فشهدت أرجاء المعرض زيارة الطفل جاد سابا برفقة والدته مهندسة الديكور يارا العمري حيث تحدثت عن فرحة ابنها بتعليق أولى محاولاته في الرسم ضمن المعرض والتي اعتبرتها دافعاً كبيراً للأطفال في توجيههم للفن والإبداع في زمن طغت عليه التكنولوجيا ووسائل التواصل الاجتماعي.

المهندس خالد قصيباتي المشرف على إقامة المعرض ذكر أن الهدف الأساسي من إقامته تشجيع الأطفال على إبراز ملكاتهم الفنية وعرض أعمالهم والاحتفاء بها لتعزيز الخيال وتنمية الإبداع وصقل المواهب وتطوير المهارات ليكونوا نواة لجيل جديد من الفنانين نتطلع إلى المزيد من تعبيراتهم الفنية في المستقبل القريب.

رامز البدين مدير مديرية القصاع في الحزب السوري القومي تحدث عن مساهمة المديرية في إقامة المعرض والتي جاءت ضمن مساعيها لتعزيز الخيال وتنمية الإبداع عند الناشئة لاحتضان أكبر عدد من مواهب اليافعين وصقل مهاراتهم وإعطائهم فرصة لإبراز مواهبهم وليكون بمنزلة دفع معنوي لهم لإبداء رأيهم وإن كان ضمن لوحة فنية.

ومن حضور المعرض أبدت مريم المعري المهتمة بالأعمال الفنية انبهارها باللوحات ومحتوياتها والتي تجلت فيها مواهب الأطفال بريشتهم التلقائية متمنية أن يوجه الآباء أطفالهم نحو الرسم لما يحمله من معان سامية وقدرة على تطوير أفكارهم.

رئيس التحرير
أحمد حمادة
مدير التحرير
معد عيسى
إشراف
ديب علي حسن
الإخـــراج
هدى نصر شمالي

توجه جميع الرسائل
باسم هيئة التحرير
دمشـــق ص.ب ٢٤٤٨
هاتف ٢١٩٣٢٢٢

كتاب العدد
حسب الترتيب الهجائي

ثائر زين الدين
حبيب الإبراهيم
سلام الفاضل
غسان ونوس
فاتن دعبول
فؤاد مسعد
مصطفى المقداد
مها محفوض محمد
نبوغ أسعد

المكانُ الروائي خزانٌ للأفكار والمشاعر

سلام الفاضل

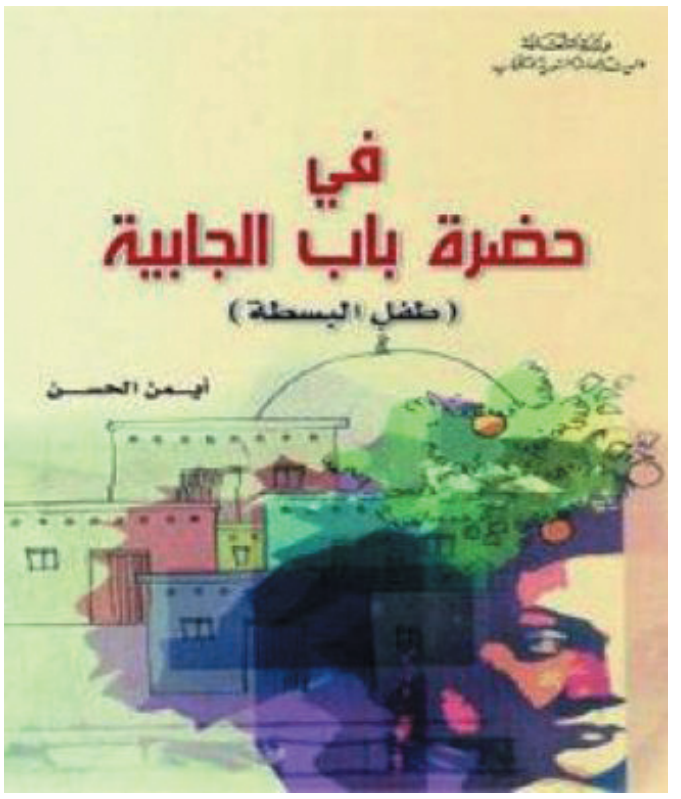

تستند كثيرٌ من الأعمال الأدبية، ولا سيما الروايات منها، في بنائها الفني على عنصر المكان، بحيث يكون هذا العنصر أحد العناصر الفنية التي تقوم عليها أحداث الرواية، والمُستوعَب الذي يضم الشخوص، في تفاعلاتها اليومية، وعلاقاتها، وحالات مدّها وجزرها، وقد يحتل المكان في أعمال أدبية أخرى مكاناً أشد تميزاً، إذ لا يكتفي الروائي مثلاً في مثل هذه الأعمال، بالاعتماد على المكان كأداة باهتة الحضور، هدفها تأطير الشخوص فقط ضمن بيئة محددة، بل إنه قد يذهب أبعد من ذلك بكثير بحيث يتحول المكان في روايته إلى أحد الأبطال الذين تقوم عليهم حبكة الرواية، كما أنه - أي المكان - قد يتخذ كما يقول (حسن بحراوي): «أشكالاً، ويتضمن معاني عديدة، حتى يصبح في بعض الأحيان هو الهدف من وجود العمل كله».

والمكان في الرواية هو: «المكان اللفظي المتخيل، أي المكان الذي صنعته اللغة انصياعاً لأغراض التخييل الروائي وحاجاته» كما جاء في تعريف (سمر روحي الفيصل) له، وعليه فإن هذا المكان من صنع مخيلة الكاتب، حتى وإن تشابه لفظاً مع أماكن موجودة على أرض الواقع، إلا أنه مكان روائي تستثيره المخيلة، كما تستثيره اللغة وإيحاءاتها، ويأتي خدمة لأغراض النص، فالمكان في الرواية الاجتماعية يختلف عنه في الرواية البوليسية، أو الرومانسية، أو سواها..

وقد تجمع بين المكان وشخوص العمل علاقات مختلفة الأشكال، بحيث يغدو هذا المكان الملجأ الذي تتوارى فيه الشخوص من قسوة العالم، أو تستجمع فيه أفكارها، أو تثوب إلى رشدها، أو تفكك مشاعرها وتعيد بناءها، وعليه يصبح المكان، في هذه الحالة، وكما يقول (حسن بحراوي): «كما لو كان خزاناً حقيقياً للأفكار والمشاعر والحدوس، حيث تنشأ بين الإنسان والمكان علاقة متبادلة يؤثر فيها كل طرف على الآخر «.. ولعل ثلاثية الكاتب المصري «نجيب محفوظ»، (بين القصرين - قصر الشوق - السكرية) تُعدّ من أبرز الأعمال الروائية التي اتخذت من المكان سمة أساسية لها، إضافة إلى أعمال الروائي الفلسطيني غسان كنفاني التي ظهر المكان جلياً فيها، كما يبدو في رواياته (عائد إلى حيفا - أم أسعد - رجال في الشمس)... وغيرهم كثير. وللوقوف على أهمية المكان في العمل الروائي، ولدى المبدع، سألنا الأديب والروائي أيمن الحسن الذي رأى: «إن حضور المكان، أو غيابه في الرواية مسألة بنائية، ذلك أن الروائي يؤثث منذ البداية عمارة روايته على وجود المكان..

كما أن وجهة نظر الروائي هذه - برأيي - تستند إلى مسألة مهمة وهي وجود المكان الآن، أي في الوقت الحالي، أو عدم وجوده، فإذا كان غير موجود تصبح أهمية وجوده في الرواية أكثر، ومن ذلك حضور المكان في الرواية الفلسطينية الذي يكتسب مشروعية كبيرة، ذلك أن العدو الصهيوني المغتصب لأرض فلسطين عمل، وما زال يعمل على تغييب هذا المكان في الواقع، وإسقاطه من أذهان الناس، ولا سيما أبناء فلسطين الأصليين، لأن هذا يؤكد على عدم شرعية وجوده، وعلى عدم أحقية الفلسطينيين في هذا المكان الذي ينتمون إليه».

ويتابع الحسن متناولاً موضوعة حضور المكان في رواياته بدءاً من روايته الأولى (أبعد من نهار «دفاتر الزفتية») قائلاً: «حضرت في هذه الرواية مدينة القنيطرة ببعض تفصيلاتها المكانية المهمة، هذا الحضور الذي جعل الأديب والكاتب زهير جبور الذي عاش هناك، بحكم وجود والده ضابطاً في الجيش العربي السوري يؤدي رسالته على الجبهة، أن يتساءل عن هذا الكاتب الجولاني الذي يكتب عن مدينة القنيطرة بهذه الحميمية، والتفصيلات الدقيقة...

كما حضرت فيها كذلك «منطقة الزفتية»، وهي لمن لا يعرفها منطقة سكن عشوائي في مدينة دمشق تمتد من باب مصلى إلى حدود الزاهرة، سكنها أبناء الجولان الذين نزحوا عن قراهم... وقد اندثرت الآن، ولم يعد لها وجود، لذلك جاء حضورها في روايتي مؤسساً لذاكرة لا تُنسى، مع ما تحمله تلك المنطقة من مآسي وآلام المساكين الذين أجبروا على الخروج من بيوتهم تحت التهديد بالقتل والتدمير»..

ولم يقف حضور المكان واضحاً جلياً في روايات الحسن على روايته (أبعد من نهار «دفاتر الزفتية»)، بل تعداه إلى رواية أخرى له حملت عنوان (في حضرة باب الجابية «طفل البسطة») هذه الرواية التي تحدث عنها الحسن بالقول: «أما هذه الرواية فقد حضرت فيها ساحة باب الجابية بأناسها ومكوناتها المعمارية، مأخوذة من ذاكرة طفل هو طفل البسطة.

وحضور المكان في هذه الرواية أيضاً، يأتي ليدلل على فترة زمنية مضت، وأناس لم يعودوا موجودين، وهم هؤلاء العمال البائسون «شغيلة اليومي»، الذين كانوا على الرغم من معاناتهم يفرحون عندما يُسقط طيارونا البواسل، أو مضاداتنا الأرضية طائرة معادية، فتفرح الساحة، وتتألق بهجة، ويحزنون لقصف العدو موقعاً عسكرياً، أو منطقة سكنية، فتحزن ساحة باب الجابية العريقة، ويأخذها البكاء المرير».

ويختتم الحسن كلامه بالتأكيد على أن: «المكان كي يكون حاضراً بالفعل لا يكفي وصفه، ذلك أن أهميته تأتي من أنه يُشكل جزءاً من البنية الروائية، وليس مجرد إضافة وصف جامد...».

ويردف: «فالمكان يحضر في الأعمال الروائية المتقنة كأي شخص من الشخوص، له شخصيته المميزة، وهويته التي لا تنفصل عن حركة الشخصيات والحوادث، فيتأثر كما تتأثر، ويحزن لحزنها، ويفرح لفرحها». وأخيراً يمكننا القول مما تقدم بأن حضور المكان في الأعمال الروائية يكتسب مكانة خاصة، إلا أن المتابع للدراسات النقدية العربية التي تناولت هذا الموضوع يُلاحظ قِلتها، على الرغم من إجماع الأدباء، والكتّاب على أهمية هذا الموضوع، وأحقية أن يُشبع المكان الروائي دراسةً، وبحثاً لما له من دور كبير في الأعمال الروائية التي لا يخلو أي عمل منها من بروز المكان كسمة حاضرة سواء أكانت باهتة الحضور، أو بارزة حتى لتغدو كأحد شخوص العمل الروائي.

نزار قباني: بيتنا قارورة العطر

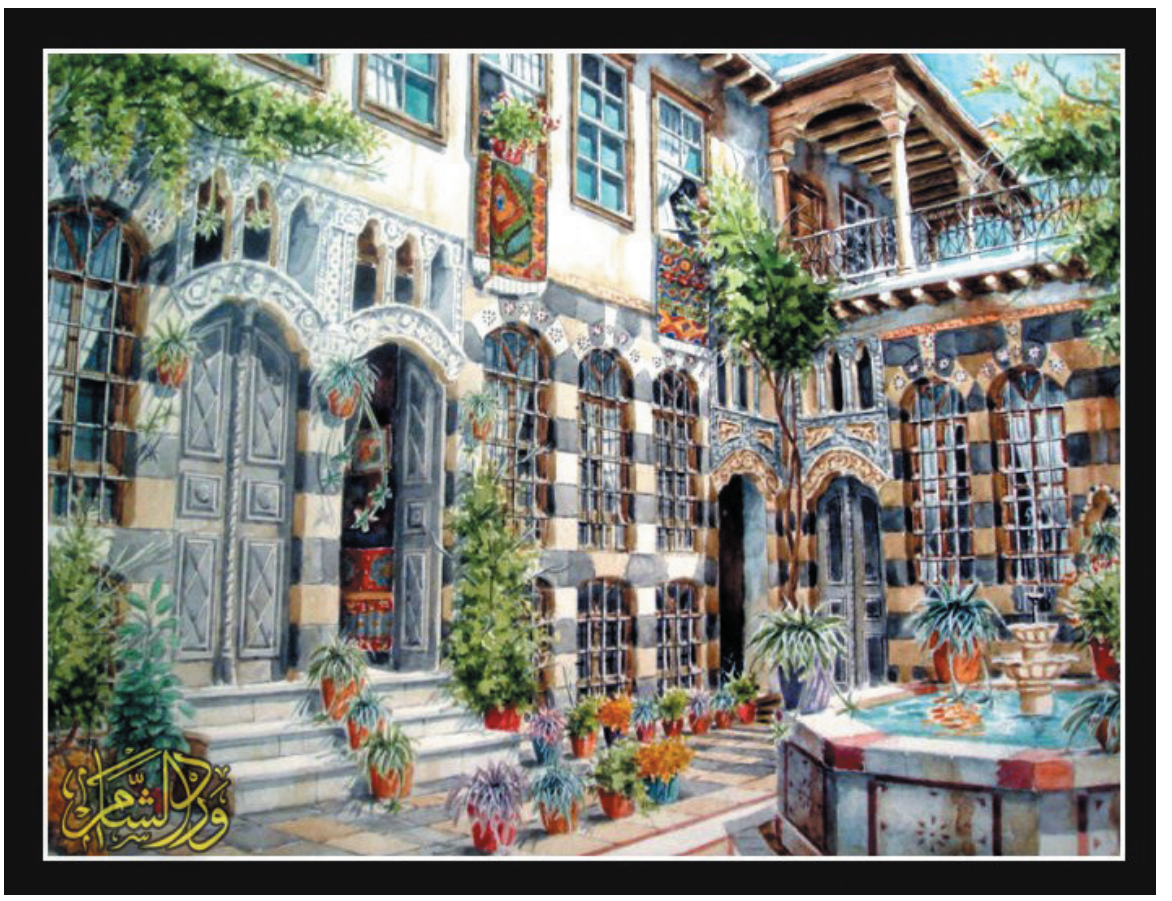

لابد من العودة مرةً أخرى إلى الحديث عن دار (مئذنة الشحم) لأنها المفتاح إلى شعري، و المدخل الصحيح إليه.
وبغير الحديث عن هذه الدار تبقى الصورة غير مكتملة، ومنتزعة من إطارها.
هل تعرفون معنى أن يسكن الإنسان في قارورة عطر؟ بيتنا كان تلك القارورة.
إنني لا أحاول رشوتكم بتشبيه بليغ، و لكن ثقوا أنني بهذا التشبيه لا أظلم قارورة العطر ..و إنما أظلم دارنا.
والذين سكنوا دمشق، و تغلغلوا في حاراتها و زواريبها الضيقة، يعرفون كيف تفتح لهم الجنة ذراعيها من حيث لا ينتظرون...
بوابة صغيرة من الخشب تنفتح.. و يبدأ الإسراء على الأخضر، و الأحمر، و الليلكي، و تبدأ سمفونية الضوء والظل والرخام.
شجرة النارنج تحتضن ثمارها، و الدالية حامل، و الياسمينة ولدت ألف قمر أبيض و علقتهم على قضبان النوافذ.. وأسراب السنونو لا تصطاف إلا عندنا..
أسود الرخام حول البركة الوسطى تملأ فمها بالماء..وتنفخه.. و تستمر اللعبة المائية ليلاً و نهاراً..لا النوافير تتعب.. ولا ماء دمشق ينتهي..
الورد البلدي سجاد أحمر ممدود تحت أقدامك.. و الليلكة تمشط شعرها البنفسجي، و الشمشير، و الخبيزة، و الشاب الظريف، و المنثور، و الريحان، و الأضاليا.. و ألوف النباتات الدمشقية التي أتذكر ألوانها و لا أتذكر أسمائها.. لا تزال تتسلق على أصابعي كلما أرت أن أكتب..
القطط الشامية النظيفة الممتلئة صحةً و نضارة تصعد إلى مملكة الشمس لتمارس غزلها و رومانتيكيتها بحرية مطلقة، وحين تعود بعد هجر الحبيب و معها قطيع من صغارها ستجد من يستقبلها و يطعمها و يكفكف دموعها..
الأدراج الرخامية تصعد.. و تصعد..على كيفها..و الحمائم تهاجر و ترجع على كيفها.. لا أحد يسألها ماذا تفعل؟ والسمك الأحمر يسبح على كيفه.. ولا أحد يسأله إلى أين؟.
وعشرون صحيفة فل في صحن الدار هي كل ثروة أمي.
كل زر فل عندها يسلوي صبياً من أولادها.. لذاك كلما غافلناها و سرقنا ولداً من أولادها..بكت..و شكتنا إلى الله..

×××

ضمن نطاق هذا الحزام الأخضر.. و لدت، و حبوت، و نطقت كلماتي الأولى.
كان اصطدامي بالجمال قدراً يومياً.. كنت إذا تعثرت أتعثر بجناح حمامة.. و إذا سقطت أسقط على حضن وردة..
هذا البيت الدمشقي الجميل استحوذ على كل مشاعري و أفقدني شهية الخروج إلى الزقاق.. كما يفعل الصبيان في كل الحارات.. و من هنا نشأ عندي هذا الحس (البيتوتي) الذي رافقني في كل مراحل حياتي.
إنني أشعر حتى اليوم بنوع من الإكتفاء الذاتي، يجعل التسكع على أرصفة الشوارع، و اصطياد الذباب في المقاهي المكتظة بالرجال، عملاً ترفضه طبيعتي.
و إذا كان نصف أدباء العالم قد تخرج من أكاديمية المقاهي، فإنني لم أكن من متخرجيها.
لقد كنت أؤمن أن العمل الأدبي عمل من أعمال العبادة، له طقوسه و مراسمه و طهارته، و كان من الصعب علي أن أفهم كيف يمكن أن يخرج الأدب الجاد من نرابيش النراجيل، و طقطقة أحجار النرد..

×××

طفولتي قضيتها تحت (مظلة الفي و الرطوبة) التي هي بيتنا العتيق في (مئذنة الشحم).
كان هذا البيت هو نهاية حدود العالم عندي، كان الصديق، و الواحة، و المشتى، و المصيف..
أستطيع الآن، أن أغمض عيني و أعد مسامير أبوابه، و أستعيد آيات القرآن المحفورة على خشب قاعاته.
أستطيع الآن أن أعد بلاطاته واحدةً..واحدة.. و أسماك بركته واحدةً..واحدة.. و سلاله الرخامية درجةً..درجة..
أستطيع أن أغمض عيني، و أستعيد، بعد ثلاثيين سنة مجلس أبي في صحن الدار، و أمامه فنجان قهوته، و منقله، و علبة تبغه، و جريدته.. و على صفحات الجريدة تساقط كل خمس دقائق زهرة ياسمين بيضاء.. كأنها رسالة حب قادمة من السماء..
على السجادة الفارسية الممدودة على بلاط الدار ذاكرت دروسي، و كتبت فروضي، و حفظت قصائد عمر بن كلثوم، و زهير، و النابغة الذبياني، و طرفة بن العبد..
هذا البيت-المظلة ترك بصماته واضحة على شعري.. تماماً كما تركت غرناطة و قرطبة و إشبيليا بصماتها على الشعر الأندلسي.
القصيدة العربية عندما وصلت إلى إسبانيا كانت مغطاةً بقشرة كثيفة من الغبار الصحراوي.. و حين دخلت منطقة الماء و البرودة في جبال (سييرا نيفادا) و شواطئ نهر الوادي الكبير..
و تغلغلت في بساتين الزيتون و كروم العنب في سهول قرطبة، خلعت ملابسها و ألقت نفسها في الماء.. و من هذا الاصطدام التاريخي بين الظمأ و الري..ولد الشعر الأندلسي..
هذا هو تفسيري الوحيد لهذا الإنقلاب الجذري في القصيدة العربية حين سافرت إلى إسبانيا في القرن السابع.
إنها بكل بساطة دخلت إلى قاعة مكيفة الهواء..
و الموشحات الأندلسية ليست سوى (قصائد مكيفة الهواء)..
وكما حدث للقصيدة العربية في إسبانيا حدث لي، امتلأت طفولتي رطوبة، و امتلأت دفاتري رطوبة، و امتلأت أبجديتي رطوبة..
هذه اللغة الشامية التي تتغلغل في مفاصل كلماتي، تعلمتها في البيت-المظلة الذي حدثتكم عنه..
ولقد سافرت كثيراً بعد ذلك، و ابتعدت عن دمشق موظفاً في السلك الديبلوماسي نحو عشرين عاماً و تعلمت لغات كثيرة أخرى، إلا أن أبجديتي الدمشقية ظلت متمسكة بأصابعي وحنجرتي، و ثيابي.. و ظللت ذلك الطفل الذي يحمل في حقيبته كل ما في أحواض دمشق، من نعناعٍ، و فل، و ورد بلدي..
إلى كل فنادق العالم التي دخلتها..حملت معي دمشق، و نمت معها على سريرٍ واحد.

حبل الأديب السريّ..؟!

حبيب الإبراهيم

ارتبط إبداع الأديب على مرّ العصور والأزمان بالمكان الذي نشأ فيه وشكّل مدارج وملاعب طفولته، وانعكس ذلك جليّاً واضحاً في حياة ومسيرة أي مبدع سواء أكان شاعراً، قاصاً، روائياً، كاتباً، أم فناناً؟.

ويظهر تأثير المكان من خلال إسقاطات متتالية تشكل مخزوناً ثقافيّاً، فكريّاً، معرفياً، لا ينضب أبداً، فالمكان هو الحبل السريّ الذي لا ينقطع، لأي مبدع، مهما تنوعت وتعددت مجالات وميادين الإبداع لديه سواء في الأدب والفن والموسيقا و... ...

هذا الارتباط العضوي والروحي يشكل هويّة الأديب والمبدع، ومنطلقه إلى الآفاق الواسعة والفضاءات الرحبة، ناقلاً تفاصيل المكان بكل ما فيه من أشياء مادية ومعنوية...

فمن يتتبع حركة الإبداع، قديمة وحديثة يجد هذه المتلازمة التي لا تنفصم بين الأديب وبيئته، والتي لا تنفك ترافقه في حلّه وترحاله، ليعكس صورة هذه البيئة بشفافية ومصداقية، ومهما حاول الأديب أن يبتعد عن المكان الذي عاش فيه فلا بد أن يجد نفسه في خضم تفاصيل وحيثيات صغيرة تشكل مشهدية صادقة لهذا الواقع، ومرآة عاكسة له سواء أكانت إيجابية أم سلبيّة ؟!.

فلو توقفنا ضمن هذا السياق عند تجارب أدباء مبدعين، شكل المكان الذي عاشوا فيه رافداً أساسياً لكتاباتهم وتجاربهم وإبداعاتهم ،بالرغم من انّهم طافوا في طول البلاد وعرضها لكن ظلّت عيونهم وافئدتهم وجوارحهم تشخص وبلهفة المحب إلى مرابع طفولتهم ومدارج صباهم ونواميس أحلامهم التي لا تنتهي...

فالأديب الطبيب عبد السلام العجيلي ابن الرقة، المدينة الصغيرة النائية، ولد فيها وعاش، وارتبط فيها ارتباط الروح بالجسد، فعندما تُذكر الرقة يُذكر عبد السلام العجيلي، وعندما يُذكر عبد السلام العجيلي تُذكر الرقة التي وهبها جلّ وقته وحياته وإبداعه، فأصبحت أيقونته واستراحته وملاذه الذي يجد فيه ذاته ونبض قلبه فاختارها مقراً ودوحاً أمضى فيه أجمل سنين عمره.

ومن يقرأ نتاجه وإبداعه يظهر جليّاً أثر البيئة الرقاوية في كتاباته وشخصياته وخاصة البيئات الريفية الفقيرة حيث شكّلت محوراً أساسياً في مؤلفاته من قصص وروايات وكتابات إبداعيّة.

لقد نقلَ العجيلي الرقّة إلى العالم، فتحولت بفضل إبداعه، من مدينةٍ صغيرة غافية على كتف الفرات، مدينة بعيدة عن العاصمة ،إلى مدينة لها حضورها البهي، وألقها الفتّان عبر قصصه وكتاباته، واسفاره ورحلاته، من خلال ترجمة أعماله ومؤلفاته إلى اللغات العالمية مثل «الإنكليزية، الفرنسية، الإيطالية، الألمانية ».....

ولعل تاثير المكان يبدأ في مراحل متقدمة من حياة المبدع، ويستمر هذا التأثير في خط بياني تصاعدي، ليتحول معه المبدع إلى الغوص أكثر في تفاصيل المكان، عناصره ...تشعباته ....مداه المستمر، فيعطي لتجربة المبدع

حيوية مستمرة ودائمة ...هذا الحال يدعنا نتوقف عند تجارب أدباء روائيين كبار مثل الأديب نجيب محفوض ورواياته (أولاد حارتنا، زقاق المدق، بين القصرين، قصر الشوق، السكرية، خان الخليلي، حرافيش، ثرثرة فوق النيل، القاهرة الجدديدة ....) أو رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للروائي السوداني الطيب صالح، أو روايات (الشمس في يوم غائم، نهاية رجل شجاع، المصابيح الزرق، الياطر ،بقايا صور،..) للأديب السوري الكبير حنا مينة، والتي عكست البحر والبيئة الساحلية بصورة دقيقة، وشكل العمود الفقري لمعظم رواياته وكتاباته الإبداعية المختلفة .... أو(مدن الملح) للروائي عبد الرحمن منيف أو ...

وتطول الأمثلة، إذ يتعذر الإحاطة بهذا الجانب من خلال مقالة صحفية، أو حتى دراسة في كتاب، فالمكان في حياة وإبداع الأديب هو البوصلة الحقيقية التي تدله وتوجهه وتنقله من المحليّة إلى العالمية، فالأديب المبدع يجول ببصره وبصيرته في آفاق المكان الرحبة ناقلاً التفاصيل بمهارة فنيّة عالية وليضع القارىء أمام لوحات فنية رائعة سواء أكانت شعراً أم قصة أم رواية ... قولاً واحداً لا يمكن لأي مبدع أن يعيش في برجه العاجي ويقدم منتجه الفكري والثقافي بعيداً عن بيئته المحلية التي ولد فيها وعاش، وحتى يكون مُقنعاً وصادقاً وشفافاً وصاحب قضيّة ورسالة، وينحاز للفقراء والبسطاء والمهمشين، يجب أن يكون ابن بيئته، التي يتواشج فيها المكان والزمان ليكونا بوابة الإبداع التي لا يمكن أن تُغلق أبداً ....

وتر الكلام

وحدها لا تكفي..!

سعاد زاهر

«غريبة تماما» ظهيرة نهار دمشقي ربيعي، تمشي بسرعة كأنها هاربة من كل شيء، تنفض عن روحها بقايا غياب لم يطل، ولكنه على مايبدو بدلها كلياً.

لاتزال محملة بأحاسيس كل الأمكنة التي زارتها مؤخراً، حاملة معها ذكريات لاتترك مكاناً إلا وتخوض معه مقارنة لاتجدي.

وهي تنزلق يساراً باتجاه الشارع المفضي إلى مقهى الهافانا، التقطت روائح الطعام السريع، ولم تستغرب التدافع لأخذ أطعمة تطهى على عجل.

حين لمحت أحد الروائيين الذي انتقل من الإعلام إلى الكتابة الروائية باكراً، كان الأوان قد فات لإلقاء التحية عليه.

لم تستفق من شرودها إلى أن أصبحت قرب سينما الكندي، وتذكرت من هنا عبرت كل أسابيع الأيام السينمائية، وتذوقناها بمتعة غريبة.

اليوم لانفتقد فقط تلك الأسابيع، بل نادراً ما ننتبه إلى وجودها، ونحن نمضي على عجل باتجاه أشغالنا..

وسط البلد، في تلك الدائرة التي تتوسط دمشق، قرب المحافظة والبرلمان، منطقة مفتوحة على طرقات متعددة شارع الحمراء والصالحية وقريباً منهما حي الشعلان الدمشقي العريق..

ولكن سابقاً كان يتوج هذه الأمكنة الاستراتيجية،مسرحا القباني والحمراء وبالقرب منهما سينما السفراء، وحين نمضي إلى الأمام قليلاً تتموضع سينما الشام بأبوابها الموصدة وحزنها الغريب..

صحيح أن المسرحين احتضنا مؤخراً احتفاليات يوم المسرح العالمي، ولكن سينما الشام منذ دهر لم نسمع أي صوت سينمائي يصدر منها..

سينما من نوع آخر بات كل من يقطن دمشق يعشها يومياً، ما إن تحتك مع أحدهم، حتى تنتبه إلى أنك لو أتقنت نقل حكايته سوف يشك المشاهد إن كانت واقعاً أو خيالاً؟!

ومابين واقع لم نتوقع أن نعشه يوماً، وأمنيات عقيمة تحلم بانتهاء أزماتنا التي تنغص جميع لحظاتنا..

تمضي دمشق وقتها معنا، تهدهد علينا مع أنها في نهار ربيعي إلا أنها ترتدي وشاحاً رمادياً، ما أن تحاول نزعه حتى تكتشف أن دموعها تحاصرها، وأوجاعها أنهكتها..

دمشق لاتشبه اي مدينة عرفتها، أو ستعرفها يوماً، هي فيها مزيج من كل شيء، معاصر وتاريخي وطبيعة جمالها لا يفتر.. تشبه حبك القابع فيك منذ الأزل، لاشيء قادراً على زحزحته.

كل المدن تغار من دمشق، وهاهي اليوم حائرة من صلابتها الناعمة..

مر عليها وقت الرماد انتشر في كل شوارعها، وهاهي اليوم تحاول نثره، محتفظة بصوت الربح عله يقيها هبوب العواصف المقبلة، مدركة في أعماقها أنه وحده لا يكفي!!

مقهى الروضة وبقايا صور

مصطفى المقداد

يتلازم الزمان والمكان ، فيتغير الأول ويتبدل ، ويثبت المكان شاهداً على المتغيرات والأحداث ليروي قصصاً وحكايات من عبروا ذلك المكان وما ترك بهم من تأثيرات ، فمارسوا نشاطات وعقدوا اجتماعات وأقروا اتفاقات وعاشوا خصومات وربما رسموا خطوط مؤامرات وخدع تركت آثارها على امتدادات واسعة.

في دمشق كما في عواصم ومدن كثيرة ، ثمة نواد ومقاه وصالات وقاعات اجتماعات ومكتبات وأسواق وملتقيات اجتماعية ومراكز ثقافية وغيرها تركت آثاراً عصية على النسيان وأخرى ثابتة كوقائع تاريخية في مسيرة البلد.

وقد عرفت سورية، ودمشق بخاصة على امتداد تاريخها الحديث الكثير من الأماكن التي شكّلت محطات تاريخية مهمة ، فقد كان فندق الشرق ملتقى الموفدين والمبعوثين الدوليين بالشخصيات السياسية والاجتماعية الوطنية بداية القرن العشرين

كما كان مقهى البرازيل في منطقة الطاووسية وسط دمشق ملتقى المثقفين العاملين في السياسة ، وكان الوزراء يعرجون عليها قبل وبعد جلسات مجلسي الشعب والنواب ليقفوا على ردود الأفعال الشعبية على قراراتهم وسلوكهم ، وكان الأديب عبد السلام العجيلي يرتادها في عودته من الوزارة ويخشى أن يسجل تأخيراً أو انقطاعاً .

وكان مقهى الهافانا واحداً من المحطات السياسية والثقافية الهامة في تاريخ سورية الحديث ، فقد كان زكي الأرسوزي يجلس به إلى طلابه وأصدقائه يحدثهم عن العروبة ويبعث بهم الروح العالية ، وفي ثمانينات القرن العشرين تم تحويله لمحل بيع ألبسة لعدة أشهر ، وعندما وصل الخبر للرئيس حافظ الأسد أمر بإعادته بصورة حديثة حتى لا يلقى مصير مقهى البرازيل ومقهى الرشيد الصيفي الذي استضاف البعثيين في نيسان ١٩٤٧ ليعقدوا مؤتمرهم التأسيسي ويعلنوا تأسيس حزب البعث العربي.

تلك أماكن سادت فترة ثم بادت وانتهت ودخل بعضها ميدان النسيان ، لتبقى أماكن أخرى ثابتة صامدة عصية على الموت والاقتلاع وإن عانت تغييرات مختلفة.

وهنا يقف مقهى الروضة في شارع العابد بدمشق شاهداً على القدرة على مواصلة الحياة في كلّ الظروف ، فهذا المقهى أنشىء قبل مئة عام ليكون سينما صيفية ، لكنّه ما لبث بعد سبع سنوات ليتحول إلى مقهى يستقبل النواب بعد خروجهم من اجتماعات مجلس النواب وتتوسع دائرة مرتاديه من المثقفين والفنانين والسياسيين والصحافيين والشعراء والرواة والدبلوماسيين العرب والأجانب والسياح ذوي الميول السياسية ليشهد نشاطات واجتماعات الكثير من الشخصيات الفاعلة والمؤثرة في الحياة العامة.

عرفت مقهى الروضة قبل أربعة عقود تقريباً كنت دائم التردد عليه ، ولم أنقطع عنه إلا خلال أسفاري وزياراتي الخارجية ، وكنت أواسي مكاني الأثير بزيارته فور وصولي من الخارج في كثير من المرات ، فكنت لا أذهب من المطار للبيت ، بل أعرج على الروضة لأكتب مقالاً أو ألتقي أحداً أو أقرأ وأطالع الصحف والمجلات والكتب ، أو المواقع الالكترونية في الفترات الأخيرة.

كان مقهى الروضة في بداية معرفتي به مبهراً إذ كان المتنفس والملتقى ، ففي كلّ زاوية منه مجموعة تجلس بصورة دائمة ، ففي الجانب الأيمن من المدخل الخارجي كان كلّ من الفنان دريد لحام ونهاد قلعي يجلسان وهما يحضران النص الكتابي لعمل فني قادم ، وفي الصدر تجلس مجموعة من كبار الموظفين المتقاعدين الذين يستخدمون ساعات الجيب ويلبسون البدلات الرسمية ، فيما يعود دريد لحام ليجالس محمد الماغوط في ساعات الصباح الباكر يعكفان تنقيح وتصحيح نص مسرحي سيأخذ طريقه إلى الخشبة في عرض مثير .

خلال العقود الثلاثة الأخيرة احتل الفنانون والصحفيون المشهد العام في مقهى الروضة ، فكانت الكتب والمشاريع المكتوبة والصحف والمجلات والأوراق البيضاء ومجموعات الأقلام الملونة تجاور فناجين الشاي والقهوة على الطاولات ، حتى إن كثيراً من القراء يطالعون الصحف اليومية ويتركونها فوق الطاولات لمن يأتي بعدهم .

كبار الأدباء والفلاسفة والشعراء سجلوا حضوراً لافتاً في فترات طويلة ، وكان حضورهم طقساً مقدّساً يجري تفقده من مراقبين كثر ، ويتم السؤال والاستفسار في حال الغياب أو الخلل أو حتى تغيير مكان جلوس أحدهم ، فهذا عادل أبو شنب يجاور البحرة وسط الصالة الداخلية، أما نصر الدين البحرة فكان من الزوار المقلين ولا يرتبط بوقت محدد، فيما شهدت نهايات القرن الماضي حضوراً جماعياً شبه دائم لكلّ من عبد الرحمن منيف وفيصل دراج وسعدالله ونوس وهم يعدون لمشروعهم الثقافي بعيداً عن مشاغل رواد المقهى الآخرين ، ليحتل برهان بخاري ذلك الدور بدايات العقد الأول من القرن الحالي في عقد لقاءات وحوارات ثقافية تطرح إشكاليات الفكر العربي وهموم الثقافة العربية ومكانتها على الساحة الإنسانية.

ولعب ذات الدور فؤاد بلاط على مدى سنوات من خلال اختيار يوم الجمعة موعداً لبحث مسألة ثقافية أو فلسفية أو فكرية والحديث في الكثير من المتناقضات والمتضادات.

ثبت المكان واستضاف سفراء ووزراء سابقين وزواراً عرباً وأجانب وفارين سياسيين من معظم الدول العربية ، وإن كان العراقيون أكثرهم حضوراً في ساحة الروضة ، حتى أنهم أوجدوا دليلاً لهم لا يكاد يفارق الروضة على امتداد النهارات وعلى مدى أربعين عاماً تقريباً ، فظروف الهروب من العراق من سبعينيات القرن الماضي استدعت وجود (أبو حالوب) كمركز استعلامات يجلس في الروضة بالقرب من الباب الأوسط ، شتاءً من الجهة الخارجية ، وصيفاً من الداخلية ، وعنده أخبار كلّ من خرج من العراق وعبر سورية لينتقل إلى أي نقطة في العالم ، فكان (أبو حالوب) عامل مقسم الهاتف البشري وهو العنوان الدائم لكلّ العراقيين ، ورحل(أبو حالوب) منذ عدة أشهر بعد أنّ أعياه التعب والشيخوخة فغادرعائداً دون أن يعرف اسمه الحقيقي إلا عدد قليل قد لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد الواحدة، فهو لبيد التميمي الذي نذر نفسه لتأمين عناوين كلّ المهاجرين العراقيين على امتداد عدة عقود ، وبقي مكانه حاضراً في ذهن ووجدان كلّ رواد مقهى الروضة.

صحيح كان ثمة مجموعات أساسية ، لكنهم لم يكونوا يلتفتون أو يتلصصون على بعضهم ، فقد كانت كلّ مجموعة مشغولة بذاتها ، وتبدلت الأحوال خلال السنوات القصيرة الماضية ، فغاب الكثير من رموز الروضة وقلما يرتادها أيمن زيدان وعباس النوري وسيف السبيعي ونضال نجم ومثنى الصبح وغيرهم ممن كانوا يشكّلون حالة تفاعلية جميلة ، لتزداد أعداد الصحفيين لأبقى أنا الأقدم باعتقادي من بين زملاء مهنة المتاعب ، وأعترف بأنني أكتب على طاولات الروضة قرابة نصف ما كتبت من مقالات أو تقارير صحفية أو تحقيقات والكثير من المقابلات التي أجريت بعضها ، وكنت أنا المستضاف في الكثير منها.

وتبقى الروضة تقاوم حالة التغيير بكثير من الثبات الذي يمثله مالكوها الراحلون والحاليون من إيمان بدورها الثقافي بصورة أساسية ، قبل الاقتصادي والترفيهي .

منزل القباني... للاستخدام الثقافي والسياحي؟

على كتف منطقة كيوان في المزة، قريباً من مديرية سياحة دمشق، ثمة منزل ترابي قديم يقاوم الزمن بما بقي منه من جدران متداعية ودون سقف، يحن إلى زمن قديم حين كان ساكنه رائد المسرح السوري «أبو خليل القباني» .. هذا المبدع الذي أوقد شعلة المسرح في بلادنا وكان له ريادة المسرح الغنائي فأسس لفن عريق ثقافياً وفكرياً وفنياً في زمن اعتبره البعض بدعة على الرغم من وجود الحكواتي وفن خيال الظل...

مع حلول عام ١٨٧١، أوقد القباني المولود ١٨٣٣، مشاعل فن جديد شغل الناس «ببدعته « مع عرضه «الشيخ وضاح ومصباح وقوت الأرواح» .. ثم تتالت العروض التي أثارت الناس بسبب شكلها وما تضمنته من تمثيل شارك به بعض الصبية الذين مثلوا دور النساء وتمكن أعداء القباني وفنه من إستصدار فرمان عثماني بإغلاق مسرحه وتم إحراقه لأنه «مزيف البنات ومرقص الصبيان» .. فغادر بعد بضع سنوات إلى مصر حيث لقي الترحاب لكن مسرحه تعرض لحريق لم يؤثر على عزيمته حيث تابع عروضه، وتنقل أكثر من مرة بين دمشق والقاهرة..

وبالعودة لمنزل رائد المسرح في منطقة كيوان الذي بدأنا الحديث عنه، أفادنا المكتب الإعلامي في وزارة السياحة حول ما ينتظره أو يخطط له: «هو ضمن برنامج بيوت المشاهير التي تعمل عليه وزارة السياحة بالتعاون مع وزارة الثقافة وعدة جهات، وهذا عبارة عن مكان متعدد الاستخدام كمعرض للموسيقا الشرقية واستخدام ثقافي وسياحي وهو غير مطروح للاستثمار».

أعتقد أن النص السابق يستدعي بضعة أسئلة نؤجلها، كما البحث في إجاباتها، لمناسبة أخرى.. لنختتم: ألا يستحق المسرح السوري بتاريخه العريق وتراثه الغني متحفاً صريحاً يحمل اسم رائده وفي منزله هذا؟

ت: حسن خليل

زاوية حادة..

ذاكرة .. ومتحف

غسان شمه

في دمشق تنساب رائحة الياسمين في ذاكرة المكان كما تنساب صور الكثير من المبدعين في ذاكرة الأمكنة القديمة والجديدة ماضياً وحاضراً..

وإذا ما عدنا إلى سنوات بعيدة فأبطال خيال الظل يعرشون على جدران دمشق القديمة بحواريها التي يحنّ كلّ بيت دمشقي على الآخر ويحنو عليه « كما وصف ذات مرة الشاعر نزار قباني الذي حمل أحد الشوارع اسمه تاجاً للإبداع الشعري، ممتداً بروح الإبداع منذ أطلق جدّه الكبير أبو خليل القباني شعلة المسرح وسراجه المنير في ثنايا العقل والروح المتعبة من كثرة ما تنوء به من ثقل، فكان صرخة لم يحتملها البعض فهاجموه وأحرقوا مسرحه ولم يدركوا أنهم أشعلوا نار الإبداع الفني أمام صهيل المستقبل في ذاك الوقت..

ومع الامتداد الجغرافي والتوسع بمساحة القلب من هذه المدينة العريقة يطلّ علينا الحكواتي ممتطياً حكاياته التي لا تنتهي إلا بالتحدي والشغب الجميل بين مستمعيه في مقاه نامت في حضن تراث معماري ما زالت بعض ملامحه تشهد عليه..

وفي الكثير من مقاهي دمشق حكايات لا تنتهي عن مبدعين وحملة أفكار شهدت كاسات القهوة والشاي والنراجيل على حوارات ساخنة، وربما مجنونة، حول قضايا فكرية وفنية ومعارك ثقافية بين عقول كان همها المستقبل بتفاصيله الكثيرة.. وإذا كان لنا أن نذكر فقهوة الحجاز وقهوة الروضة ما زالتا في الذاكرة وكذلك قهوة الهافانا، ومقهى أبو شفيق في الربوة ما زالت طاولة الماغوط فيه تشهد على الكثير من إبداعه ونكاته وروحه المتعبة والصاخبة بالأفكار والآمال..

ويبقى لأبي خليل القباني منزله في منطقة كيوان بدمشق التي يأمل المسرحيون أن يتحول إلى مسرح ومتحف للمسرح السوري تقديراً لهذا المبدع الكبير.

مقاهي العظماء

مها محفوض محمد

ضمن سلسلة حكايا المقاهي الأدبية نشرت مجلة نوفيل اوبسرفاتور تحقيقاً عن تاريخ أقدم هذه المقاهي (لوبروكوب).

عرف مقهى لوبروكوب رواداً كباراً أدباء وفلاسفة من أهمهم فولتير ديدرو وجان جاك روسو وعدد من قادة الثورة الفرنسية إضافة إلى بنيامين فرانكلين.... فأين يقع لوبروكوب؟.

هل تسكعت في بولفار سان جرمان الشهير وهل وصلت إلى زاويته الشمالية، هناك تجد المقهى بواجهته الفخمة في زاوية اشتهرت آنذاك بإنتاج عصائر الورد وأطيب أنواع الزهور ماأضفى على المقهى عبقاً مميزاً.

تأسس البروكوب عام ١٦٨٦م العام الذي لاينسى في تاريخ الأدب فقد شهد موت المسرحيين العملاقين موليير وكورنييه كما شهد إشعاعات أدبية لمشاهير العصر مثل راسين وبوالو ولافونتين، وفي ذاك الزمن كان إنشاء المقاهي يعد من صرعات العصر أيضاً، في ذلك العام صدرت رخصة افتتاح مسرح فيلارموني في شارع مجاور للمقهى، بينما كانت دار الكوميديا الفرنسية قد استقرت على الضفة الثانية للنهر، أما اسم المقهى بروكوب فقد اشتق من اسم عائلة متعهد بناء من باليرمو في صقليا يدعى فرانسيسكو بروكوبيو وكان قد تعلم المهنة لدى الأرمن وبدأ حياته في استثمار المقاهي، وعندما تحسنت أحواله اختار هذا المكان ليؤسس البروكوب في أقدم المناطق الباريسية، وحيث عهد بديكوره الراقي وقتئذ إلى أحد الفنانين الطليان وبعد الافتتاح أصبح المقهى ملتقى لعشاق الأدب والفن وخاصة المسرح فكان ممثلو المسرح يذهبون إليه كل مساء بعد نهاية عملهم ليشربوا كأساً من الخمر أو أكواب الحليب الحار خاصة عند الاحتفال بالنجاح.... أحد كبار الصحفيين في القرن الثامن عشر لويس سيباستيان ميرسيه كتب مقالاً في ٢٥ كانون الثاني ١٧٩٩م يدرك القارئ من خلاله العلاقة التي كانت قائمة مابين المسرح والمقهى وكيف كانا يشكلان عنصر جذب لشباب تلك المرحلة، يقول ميرسيه في مقاله : عندما ذهبت للمرة الأولى عام ١٧٥٧م لمشاهدة المسرح وبعد دخولي الصالة شكلنا يومئذ مانستطيع تسميته (كتيبة) من شباب الآداب ومع نهاية العرض ذهبنا إلى مقهى البروكوب لنتحدث عن الفن وجاء النادل المعروف من قبل الجميع ليسكب المشاريب الحارة واقترب مني وهمس في أذني (سقى الله تلك الأيام الخوالي) وكان يقصد أيام المسرح والأعمال الكبيرة حيث كان في نهاية كل عمل يقوم على خدمة النجوم.

جان جاك روسو الكاتب المسرحي كان يختار إحدى زوايا المقهى ويجلس فيها ليحوم حول الشخصيات التي سيعطيها الأدوار وفيها التقى روسو بالممثل المشهور لانو الذي قبل حينها أن يلعب دور نرجس في إحدى مسرحياته وفي ذلك المقهى اختار الممثلات دوسين وغراندفال، لكن مسرحيته هذه لم تسجل في سجل المسرحيات الخالدة كما في سجلات موليير كما كان روسو يجلس في المقهى لينسى أحزانه ويحتسي الخمر مع بوازي وبعض الكتاب والنقاد.

وعرف المقهى أيضاً الفيلسوف الكبير فولتير الذي كان يلقب بإله المقهى ليس فقط فولتير بل نستطيع القول إنه ما من مثقف في ذلك العصر إلا وكان يرتاد البروكوب لذا فقد كان يسمى بالمقر العام للمثقفين، ومنها بالذات قرر الفيلسوف الشهير ديدرو البدء بتشكيل موسوعته، فولتير كان له مكتب خاص في المقهى تشع منه أنوار حقيقية لفيلسوف عصر التنوير.. لقد لعب ذلك المقهى في أحيان كثيرة دور القاطع في حياة الكثير من الأدباء فمنه انطلقت الشرارة الأولى لأعمال فلسفية بدلت وجع الغرب بل العالم. الأديب آرسن هوساي كتب يقول: كان مقهى البروكوب في القرن الثامن عشر أفضل صحيفة باريسية على الإطلاق ومن رواده دي فونتين وفريرون وماليفو وبوشيه ورامو والقائمة تطول وصولاً إلى كودورسيه واولباخ.

من البروكوب انطلقت شرارة الثورة الفرنسية ففيها كان يلتقي مارات ودانتون وروبيسبير وحول أكواب الكريما التي كانوا يشربونها عقدوا مجالس الحرب، هيبريت كان هناك أيضاً وإلى جانبه جلس خطيب الثورة ميرابو وكانت طاولته محجوزة دوماً باسمه .. في عام ١٧٢٨م قال الفيلسوف مونتسكيو :

(لو كنت حاكماً لهذا البلد لأقفلت المقاهي التي يرتادها أناس يقومون بإشعال الأدمغة) من رواد المقهى المعروفين أيضاً الرئيس الأميركي فرانكلين وهناك وضع الأسطر الأولى للدستور الأميركي الجديد، وفي هذا المقهى اختيرت القبعة الفرنسية لتكون شعاراً للثورة وفيه أيضاً اتخذ القرار بالهجوم على قصور التويليري الملكية في ١١ آب ١٧٩٢م وبالطبع بعد هذا التاريخ الأحمر جاء زمن قطاف العنب الباريسي وشرب منه هؤلاء السادة .. كما لم ينس الشعراء ذلك المقهى فقد كتب بول فيرلين عام ١٨٦٥م قصيدة ذكر بها كثيراً مقهى البروكوب وأنه كان ملاذه في كثير من الأوقات، أيضاً هيغو ذكر المقهى في روايته التي تحمل عنوان (٩٣)والتي ألحق اسم ديدرو بها معتبراً أن المقهى كان المكان الأقرب لقلب ديدرو.

واليوم أول مايدخل الزائر البروكوب تطالعه قبعة نابليون في المدخل فيخال نفسه في متحف أو معبد ....لوحات ومستندات أخرى تستحضر الثورة.... إعلان حقوق الإنسان، حتى الحمامات فيها صفائح كتب عليها (الجميع متساوون) طاولة فولتير مازالت على حالها، طبق الدجاج بالخمر، وقد تغمض عينيك للحظات فتحسب أن فولتير وديدرو جالسان هناك.

المكان وأنا والأدب

غسان كامل ونوس

المكان كان
وأكون
والأدب يكون!
لم ينتظرني؛ هل استبقني، ليتهيّأ لي؟
هل احترمته، وشكرت له احتضانه، وأكرمت مقامه؟!
هل تمثّلتُه، واصطفيته، وانتبذت به نصّاً عصيّاً؛ لأخلّده، أو لأتملّكه، وأنجب فيه ما يمكن أن يتخلّق؟!
أم كيّفته حسب ما أريد؛ وهل أعرف ما أريد؟! اختصرته، وأعدت تكوينه، وضاق بأحلامي، وأمانيّ، وأوهامي، وتهويماتي، ومخلوقاتي؟! هل يمكنها أن تتكيّفه، أن تعيش حسب معطياته، أم ستكيّفه، لزمان غير زماننا، حسب ما تريد؟! وإلاّ؟! وكيف؟! ولماذا؟! وهل تعرف تلك الكائنات النصّيّة ما تريد؟!
المكان وأنا صنوان؛ كان قبل أن أكون؛ فهو موئلي/موائلي، وأنا مواطِنُهُ؛ وليداً ويافعاً و...، باكياً وضاحكاً، قلقاً وشاكاً، محتاجاً إلى الأمان، باحثاً عنه، مفتقده! توّاقاً إلى الرضا، متوسّله، نتبادل المشاعر الكامنة؛ ألفة وحنيناً، تأسّياً ومواساة وعزاء؛ قبل الأدب ومعه وبعده!
كلانا أصيل؛ هو لا يغادر مرتسمه، ولا يفارق أحاسيسي؛ أتقرّى عناصره القارّة والمتبدّلة، المعهودة والمستجدّة، كلّ آن، وأسترجع مشهديّاتها بعد آن وآن؛ يعرف حركاتي وأبعادي، ويقدّرها، ويمتلئ بها، وينفتح إلى مَدَياتها، ويستشفّ مشاعري فيسايرها، ويتحسّس انفعالاتي، ويهدّئها، وتضحك أفنانه مع فرحتي، وأبكي بين أحضانه؛ يحسن الإصغاء الودود، أمين على الأسرار والعواطف؛ أبوح له بصمت يجيده، ويفهمه، وبأصوات يتصادى معها؛ يناغي، ويسائل، ويداري.. أشذّب برّيّته، وأؤنسن معالمه، وأراوده عن وحدته، ونتبادل التأمّل والاستغفال؛ أستحميه، وأستعطفه، وأستدفئه، وأستظلّه، وأستهديه، ولا يبخل، أو يتردّد، أو يتبلّد؛ أستسمحه، إن أغلظت القول والفعل في محرابه، وإن بالغت في الغياب، فيعذرني؛ أسلّيه، ويشاغلني، ويعزّيني؛ أقرأ له، ويوافيني بما كدت أنساه؛ ممّا طاف على نتوءاته، واستغرق في مساماته؛ سهواً أو مشاكسة، أو انشباعاً، وأغافله بعبث واغتراب وتبدّل، فيعلّلني بالفصول والأصول والكائنات؛ يفتح منافذه- أيضاً- لسواي، وأنشغل عنه بسواه؛ أكبر، ويكبر بعضه معي، وبعضه يحتفظ بسماته، ويبقى لديّ ما هو طفل وغرّ وساذج، وحميم، وللطبيعة والزمن آثار عليه وعليّ وتبعات؛ وأكتب عنه ومعه وفيه، ما يحفظه، ويحفظني؛ أستذكره، ويعالقني، قبل أن أنضج، وقد آتيه، ويفاجأ، وأفاجأ، بمن هو، وما هو، غريب عنه وعنّي، ومنه ومنّي، ولات ساعة مندم، ولا تفيد الندامة، ولا يعوّض تبادل الاتّهام عمّا كان؛ ولا يغْني ما قد يكون في البعد، ولا بدّ من القرب، الذي قد يأتي متأخّراً بعد فوات الروح، وقد لا يأتي!
أنا والمكان ندّان؛ نتعايش، ونتعابث، ونتشاكس، ونفترق، وقد بدّلتُ، وتبدّلت، وبدّل، وتبدّل؛
نختصم، ونحتكم، وفينا الخصم والحكم؛ نتلاوم، ونتعاتب، ولي عليه حقّ، وله عليّ واجب، وليس العيب كلّه فينا؛ فقد جئته بما لديّ من حَرْث وإرث، وتلقّاني بما هو عليه، ولم يكن بكراً؛ ربّما؛ فهناك من مرّ قبلي، يشبهني، ولا يشبهني، وتخلّفت عنه أحياء وأشياء، وستتخلّف عنّي وعن سواي في المشهد والمنظور، والمعيش والمتخيّل، والمكتوب والمقروء، والمخبوء والمنفوث والمعلن! و سيكون- لا شكّ- في ما كان منه ومنّي، وفي أوقاتنا ورفقتنا، وفيما يَحفظ، وأحفظ، من عهود ووعود، ومن تماسّ وهجس، ونبرات وإيقاع وتدوين، بعضُ ما يساعد على استحضار واستذكار واستحفاظ من عمْر وسيرة وبعض حياة كانت، إلى بعض حياة لنا، لكائنات أخرى، تكون، ويمكن أن تكون.
أنا والمكان ندّان، يتواشجان، ويختلفان، من حجر وتراب ومأوى، إلى شجر طيّب الثمر والظلّ، فتيّ أو معمّر؛ من دروب ضيّقة وعرة، وانعطافات مرّة، وصعود أمرّ، واستقامة خجولة، وانحدار متهوّر، ومسيل مشفق، وانهمار متواصل، وسيل لا يرحم، إلى طريق معبّدة وجسور معلّقة، وساحات مزيّنة، ودوّارات منتظمة؛ من سراجات محشرجة، وعتمة مقيمة، وبرد وحرّ، وأحياز مفتوحة على العزلة والهدوء والخلاء، ورغبة وأحلام، وخطو وتعثّر ووداع، إلى أضواء مبهرة، ودفء مستفزّ، ومنبّهات منفّرة، وضوضاء مقلقة، ووقائع كارثيّة، ومصير على كفّ أحمق، أو ارتعاش أرضيّ، أو انفلات مدار... من صحبة كائنات عاقلة، وغير عاقلة، أليفة مسالمة، ووحشيّة مؤذية، تنفتح لها الجهات والحدود والأنفس، إلى كائنات مدجّنة مسلّعة مقيّدة مبرمجة!
لا تاريخ لمكان ثابت أو متحرّك، من دون زمان، وكائنات؛ ولسوانا أزمنة وأمكنة وتواريخ؛ ولا حياة لكائن من دون مكان وزمان، ولا معنى لزمان، يطوّف من دون مكان!
للواقع المجسّد والمسموع، أمكنة محسوسة ومعايَنة، تحتضن، وتلفظ، متأثّرة ومؤثّرة؛ بمرور الزمن، ونوعيّة الأحياء وحيويّتها، وللأدب أمكنة واقعيّة ومتخيّلة، بعلامات محسوسة أو مبثوثة، وكائنات تُفترض، ترث، وتتخلّق، تنمو، وتتنقّل، تفكّر، وتنشط، أو تتكاسل، تنجح، وتفشل، تعتلّ وتموت، وقبل هذا وبعده، أحياء عاقلون، لم يأتوا من فراغ، ولا يعيشون في لا مكان، وليسوا على سويّة واحدة، وإمكانيّات محدّدة، يكتبون، ويتلقّون؛ ويقيّمون...
وللمكان انعكاسه في النصّ؛ بموجوداته وكينونتها وتعايشها ومعايشتها للأحياء، المؤثّرين فيها ومعها، في الحركة والتبدّل والتغيير، التي لا يمكن حدوثها من دون زمن. وتختلف المواصفات والتأثيرات، ويتفاوت التناول بين جنس إبداعيّ وآخر؛ فتكثر- ربّما- العلامات الفارقة للمكان والعناصر، في الرواية والقصّة والمسرح والمقالة، وتقلّ في الشعر، ولا سيّما الحداثيّ منه، وفي الخاطرة؛ كما تتباين حدّة تلك العلامات، وحركتها، بين نصّ وآخر في الجنس الأدبيّ نفسه؛ حسب أسلوب الأديب وموهبته وخصوصيّته واهتماماته. وليس الحكم هنا قاطعاً باتّاً؛ بل يعود- أيضاً- إلى مستوى المتلقّي، واختصاصه، وحساسيّته، ومهارته، وموهبته، وخبرته، وبيئته، وزمنه.
المكان وأنا والأدب... كنّا
ويكون المكان، ولن أكون؛ وليت، ولعلّ ما كتبتُ، وأكتبُ، يكون.

المكان بصمة الشاعر

نبوغ اسعد

المكان هو أساس في بناء البيئة الاجتماعية، وله الأثر الأكبر في بناء التكوين النفسي لشخصية الإنسان وهذا ينعكس على كل شخصية بشكل عام ..وينطبق الأمر ذاته على شخصية الشاعر ..لكن الشاعر بما يمتلكه من مشاعر وأحاسيس وقدرات غير الإنسان العادي فالبيئة الجبلية تختلف عن الصحراوية وغيرها وكذلك يلعب البحر دوراً كبيراً في تكوين آخر لكثير من الملامح اللفظية والحركة التي تختلف عما يفعله الجبل والسهل الوادي والمدن وغير ذلك مما يرتبط بطبيعة الانسان .. وإذا عدنا إلى تاريخنا العربي القديم نجد أن القدرة الشعرية لا تضاهى وتمتلك جماليات تتفوق على عصور مختلفة وكانت القصائد تحتوي ثقافات مختلفة وهذه الثقافات يتصدر فيها الشعر ويحتل المرتبة الأولى ..

وكانت البيئة قد أكسبت سكانها تشابهاً في التعاطي مع القصيدة فإذا قرأنا مطلع معلقة طرفة بن العبد نجد أن المكان فيها يفتتح به القصيدة وهي الأطلال الذي أخذ جمالاً معيناً في بداية المعلقة .. فيقول : لخولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسا أو تجلد .. هذا المكان هو الأطلال والديار المليئة بالحصى الحجارة والذي يمتلك آثار الكف وطيب خولة حبيبة الشاعر أو المرأة التي كان يراها جميلة وتأوي إلى تلك الطلول .. نجد أنه رغم الخلاف النفسي بين الشعراء والخلاف بين أخلاقياتهم فالمطلع دائماً في نصوصهم بسبب أثر البناء هو متشابه وهذا مانجده أيضاً في معلقة امرئ القيس الذي قال فيها : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوا بين الدخول فحومل فتوضح فالمقرات لم يعفر اسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل .. ونحن نعرف تماما أن هناك خلافاً في التركيب الثقافي والأخلاقي عند الشاعرين ولكن كلاهما وقفا على الأطلال وإن كان وقوف امرئ القيس يحتمل حباً مختلفاً عن طرفة ابن العبد ولكن النتيجة أنهما انطلقا في جماليات شعرهما من الأطلال حتى البكاء كما فعل امرؤ القيس.. دعا ليكون على الأطلال ذاكرًا أسماء الأماكن والمواضيع التي يحبها ويزورها إلى آخر زفرة من روحه .. وإذا تابعنا الحركة العاطفية في المعلقتين نجد أن كلاً من الشاعرين قد خرج من موضوع الأطلال ليدخل فيما يريده وأن كل شاعر ذهب إلى مواضيع تختلف عن الآخر..

ونجد أيضاً أن المكان قد أثر على شخصية عنترة بن شداد العبسي الذي يعتبر من أشهر فرسان العرب في الجاهلية ومن شعراء الطبقة الأولى وكان أكثرهم أخلاقاً وأنقاهم حباً، إلا أن الثقافة المعرفية كانت تلعب دورها متأثرة بالعلاقات والبيئة وبالتعامل والاكتساب الثقافي ومعلقة عنترة لاتشبه المعلقات بما ذهبت في التعاطي مع الانعكاس العاطفي والنفسي وتجسيده شخصيته النقية في المعلقة ..إلا أنه شابه أقرانه من الشعراء وبدأ معلقته بالوقوف على الأطلال ..فقال : هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفتي الدار بعد توهم يادار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي في وقوفه على الأطلال اعتبر أن الشعراء قد أصلحوا ورفعوا قدر كل الأماكن ..فكيف سيبدأ قصيدته التي انطلق بها من الوقوف على الأماكن التي وقف عليها الشعراء ومن دار عبلة حبيبته تحديداً ..حيث اختلف فقط في رسم الصورة التي جسدها والتي انعكست بصدق انفعاله وإحساسه ..ثم يكمل معلقته أيضاً إلى ما يريد أن يطرح من بنى اجتماعية مختلفة ظهرت في قصائده وكانت ذا وقع متميز على ذائقة كل من سمع بشعره الذي يعد من عيون الشعر العربي وموسوعة لا تنضب . وهنا شاعر أيضاً يعد من فحول شعراء الجاهلية وهو لبيد ابن ربيعة العامري ومن الفرسان الأشراف في زمن الجاهلية ..

أيضاً بدأ معلقته بقوله : عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها فمدافع الريان عريا رسمها خلقا كما ضمن الوحي سلامها .. فالأماكن والإقامة بها والترحال عنها واضحة وهذا يعني أنه لم يختلف بالسلوك الذي نشأ عليه في بناء قصيدته ..صاحبة الحضور الكبير في تاريخ الشعر، وإن اختلف بعض الشعراء في مطالع نصوصهم نجد أنه لم يتأثر الشاعر بالمكان فأثر البيئة المكانية واضح فيها .. وهذا النابغة الذبياني يقول : أمن آل مية رائح أو مغتد عجلان ذا زاد و غير مزود .. برغم ضيق المكان وصعوبة التحصيل الثقافي في ذلك العصر الذي من المفترض أن يبحثوا النقاد له عن غير تسمية تليق بمقامه الشعري العريق ..فنجد أن سعة ملكاتهم الشعرية، لم يتمكن التطور حتى الآن أن يتجاوزها ..ولم تتمكن كل وسائل التكنولوجيا الحديثة أن تقدم تكويناً أكثر قوة من ذلك التكوين الذي عبر الزمن دون توقف برغم كل المؤامرات التي تحاك ضده.

ذاكرة مفعمة بالإبداع والحنين

فاتن أحمد دعبول

لا تكاد الذكريات عصية على النسيان حتى ولو طالت سنوات البعد والحنين، فكيف إذا احتلت تلك الذكريات أماكن هي الشريان الذي ينبض بأرجاء الروح فيحيلها إليه ليستمد منها أكسير الحياة كلّما شعر الإنسان بشح حياته من تلك اللحظات الأسيرة لديه في مكان ما، وزمن ما، وشعور يسكن بين الضلوع.

هي الفطرة الإنسانية التي تدفع بالإنسان أن يتلفت بقلبه وعاطفته إلى تلك الأماكن التي شكّلت طفولته، وملاعب صباه وشبابه، وسجلت بين حناياها ذكرى أصحاب ورفاق درب، ونبض أحاسيس، ترتعش لها الأضلع كلّما تدفقت إلى الوجود، لتعيد معها تلك المساحة الجغرافية التي نشأ وترعرع وعاش فيها بكلّ دفئها وحميميتها.

إن للمكان قدسيته وسحره يدفع بالإنسان للتعلق به، ولأن المبدع هو الأكثر تأثراً بما يدور حوله من أحداث ووقائع، نراه يختزن تلك التفاصيل الدقيقة ويحولها إلى نص شعري، أو منتج أدبي، فللأدباء والشعراء ذاكرة تصويرية وإحساس مختلف، فهم يحتفون بكلّ الأماكن التي تعني لهم في تفاصيلها الكثير من لحظات الشوق والحنين والذكريات الآسرة، فيحولونها إلى نصوص أدبية تعكس ارتباطهم بالمكان.

ترى ماذا يقول الأدباء في ذاكرة المكان، سؤال توجهنا به إلى من كان له المكان نبض حنين وبعث جديد.

الدكتور جهاد بكفلوني: مهوى الفؤاد

ويبدأ د. جهاد بكفلوني الحديث عن ذاكرة المكان بقول الصمة القشيري:

بروحي تلك الأرض ما أطيب الربى

وما أحسن المصطاف والمتربعا.

ويبين أن هذا البيت يشير إلى تعلق المرء بالمكان، وإن كان المقصود هنا الأرض التي فتح عينيه متنشقاً طيب ترابها:

بلاد بها عقّ الشباب تمائمي

وأول أرض مسّ جلدي ترابها.

كان الشاعر إذا ارتج عليه، قصد مكاناً تستريح إليه نفسه، كأن يكون روضاً متنوع الرياحين والأطياب، ينسى فيه همومه وأحزانه فيسلس له القول القياد:

يا لشوقي إلى محاسن قطر هبط الوحي فيه والإلهام.

وعندما قصد خليل مطران الإسكندرية للاستشفاء كتب فيها قصيدته الرائعة:

متفرد بصبابتي متفرد

بكآبتي متفرد بعنائي

شاك إلى البحر اضطراب خواطري

فيجيبني برياحه الهوجاء

ينتابها موج كموج مكارهي

ويفتّها كالسقم يوماً زائلاً

فرأيت في المرآة كيف مسائي

فالمكان ذو تأثير قوي على المبدع، ما في ذلك أدنى ريب، ولذلك قالت العرب:

مهوى الفؤاد:

ومن مذهبي حبّ الديار لأهلها

وللناس فيما يعشقون مذاهب.

منير خلف: جذوره تشحن الذاكرة

ويرى الأديب منير خلف أن للمكان سراً لا يرى، لكنّه يشحن ذاكرة القلب بما لذ من فكر وطاب من معنى، وللمكان كذلك سحر يأخذ بأيدي القلوب ورياحين الوجدان.

للمكان جذور لا يمكن للشاعر التفلت من نسغها الكامل والاستغناء عنه، إذ لا أستطيع أن أرى انهمار غيث في دمشق أو الحسكة إلا وتحضر أمام كاميرا قلبي صورة الغيث في قريتي» شاغر بازار» التي شهدت مسقط أحلامي، لا يمكن رؤية قبّرات إلا وأتذكر قبرات» شاغر بازار» لا يمكن رؤية جبل إلا واستحضار ذكريات الطفولة على تلال جبل» شاغر بازار» القرية الواقعة بين عامودا والحسكة.

شاغر بازار قريتي التي حفظت ذكريات طفولتي وحفظت حبّها والتعلق بحبال سرتها الخضراء حتى نخاع الوله، ومازالت حاضرة في القلب تحثني على التذكر والبكاء حفاظاً على جمرة الإبداع وانطلاقا نحو الحياة، وحلاوة المكان» صديقتي»

لا تتأتى إلا من خلال ساكنيه وأهله الطيبين، ولي في هذا الباب شعراً:

يحلو المكان بأهله وبناسه

يامن يراني عالقاً بلباسه

كلّ الأماكن أرضنا وسماؤنا

إن صح منا الحبّ في أنفاسه

فانوس غربتنا شموس من هوى

ترقى بأنفسنا إلى إحساسه

أولم يقل قيس بن الملوح في حبّ ديار ليلى:

أمر على الديار، ديار ليلى

أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حبّ الديار شغفن قلبي

ولكن حبّ من سكن الديارا

وقبل أن أضع نقطة النهاية لابدّ أن ألفت إلى أنّ الأدباء والشعراء هكذا يرون المكان بكلّ ما يحمل من ذكريات تسكن الروح لتتفتح من جديد عند أول قطرة غيث، وكثيراً ما كان القدماء يتغنون بما أطلقوا عليه الزمن الجميل، في إشارة إلى الماضي وذكرياته التي ارتبطت بالمكان وبأهله من جهة، وبتفاصيل حميمية من جهة أخرى.

ولكن أليس في واقعنا الحالي ما يستحق أن نفسح له مكاناً في ذاكرتنا، ليتغنى به أبناؤنا في القادم من الأيام؟

نحن من نصنع الذكريات ونخلد الأمكنة، فلتكن سجلاتنا حافلة بما يمنحنا حياة جديدة، نبعث الحياة في الماضي، ونخلد ذكرى اليوم في جعبة الأيام، فهي زادنا سننهل منه يوماً، فليكن عطراً بالحبّ والأمل والإبداع.

السينما والعين الساحرة

فؤاد مسعد

روح المكان وخصوصيته، حميميته ودلالاته وما يحمل من أبعادٍ ومعانٍ يتماهى فيها الخاص مع العام شكّل عصباً أساسياً في العديد من الأفلام السينمائية السورية، هذا العصب الذي تراوح بين الغوص في المحلية حتى العمق وبين ما يحمل المكان من دلالات الهوية والانتماء والتجذر لتبدو العلاقة عضوية وأساسية بينه وبين الفن السابع، وقد برزت خصوصية المكان في أفلام لكثير من المخرجين السوريين، فكان أحد العناصر المهمة والحاضرة بقوة إن كان عبر البيئة أو الذاكرة الجمعية وأحداث ارتبطت بمنطقة معينة أو من خلال العادات والتقاليد والطقوس التي تشكل في مجموعها هوية مجتمع متكامل مرتبطة بالأرض والجذور، حتى إن هناك أفلاماً حملت في عناوينها أسماء مدن كما هو حال أفلام (دمشق حلب، دمشق يا بسمة الحزن، مطر حمص، اللجاة، ..) وضمن هذا الإطار لا بد من ذكر فيلم (كفر قاسم) إخراج برهان علوية عام ١٩٧٤ الذي كان المكان أحد أبطاله وتناول مجزرة قرية كفر قاسم الفلسطينية التي قامت بها السلطات العسكرية الصهيونية.

تميز كل مخرج سينمائي سوري بإظهار المكان وفق مفهومه ورؤيته الفكرية والإبداعية طارحاً أبعاده وارتباطه بالحالة الوجدانية والعاطفية والإنسانية والوطنية، لذلك يمكن اعتبار أن الكثير من الأفلام تُمثل في أحد أوجهها ذاكرة روحيّة منسوجة من عمق الأحداث وتشكل استقراءً لمرحلة معينة، وفيما يلي نرصد لمجموعة أفلام من إنتاج المؤسسة العامة للسينما أنجزها مخرجون مبدعون أثروا الحراك السينمائي بأعمال غاصت في هوية المكان والبيئة والمجتمع ملتقطة نبض هذا التمازج الذي يعطي في إطاره العام السمة التي تميز كل فيلم.

ومن المخرجين الذين حضر المكان في أفلامهم بقوة المخرج غسان شميط، فضمن أجواء تغوص إلى تفاصيل المنطقة ومعالمها الإنسانية والمكانية قدم فيلم (الهوية) حيث ارتبط المكان فيه بحالة النضال ومقاومة المحتل، فقد دارت الأحداث بين الجليل في فلسطين ومجدل شمس في الجولان عبر حكاية تحمل هاجساً وتوقاً للحرية والكفاح، هذا التوق الذي أنهى فيه الفيلم مؤكداً أن الأرض تولّد الأبطال والمناضلين دائماً، وأبرز عبر مجريات الفيلم كيف أحرق أهل الجولان الهوية الإسرائيلية مؤكدين أن الجولان سوري ولا بد من عودته إلى بلده الأم، وفي مكان آخر نتابع مشاهد تلج عمق البيئة وتحاكي تفاصيلها الأشد خصوصية (قطف التفاح من الأرض) وما يرافق ذلك من الطقوس والأهازيج الخاصة بالمنطقة، وهناك مشهد مصادرة القوات الإسرائيلية أراضٍ فيها مياه ما دفع الأهالي إلى مقاومة قرار المصادرة ومحاولتهم ثني الجيش الإسرائيلي عما يفعل فيُجابَهون بإطلاق النار وهناك من يستشهد مدافعاً عن أرضه، وقد حمل الفيلم بشكل عام هماً وطنياً وقومياً يصب في إطار المقاومة والدفاع عن الأرض.

وللمخرج ذاته العديد من الأفلام التي أولى فيها أهمية خاصة للمكان مظهراً خصوصية البيئة كما في فيلم (شيء ما يحترق) الذي تناول فكرة الحنين إلى الأرض وأمل العودة لمن نزحوا من أهلنا في الجولان عام ١٩٦٧. ونتابع في فيلمه (الشراع والعاصفة) المأخوذ عن راوية حنا مينة خصوصية البيئة الساحلية وكيف يعيش (أهل البحر) حيث مراكب الصيد وقصة ترصد تفاصيل حياة البطل ضمن حكاية شعبية يدور جزء من أحداثها في البحر. وقد برزت البيئة الساحلية في مجموعة من الأفلام منها (آه يا بحر) إخراج محمد شاهين المأخوذ عن رواية (الدقل) لحنا مينة، أما البيئة الريفية فتناولتها العديد من الأفلام مُظهرة دفئها ومسلطة الضوء على تفاصيلها المختلفة، ومن أهم المخرجين الذين تناولوها في أعمالهم المخرج عبد اللطيف عبد الحميد، فالمتتبع لمسيرة أفلامه يلحظ أهمية المكان والبيئة لديه منذ فيلم (ليالي ابن آوى) الذي بدت فيه عفوية وبساطة العلاقات بين الناس ومن ثم فيلم (رسائل شفهية) إضافة إلى أفلام أخرى له بما فيها تلك التي تناول فيها بيئات مختلفة، فقد حمل كل منها خصوصية البيئة الذي تدور فيها الأحداث.

كثيراً ما ارتبط موضوع المكان بحالة المقاومة والدفاع عن الوطن وضمن هذا السياق أُنجِزت أفلام تناولت ارتباط الجندي بأرضه وذوده عنها بشجاعة وسعيه الشهادة ليكون قرباناً يُقدم على مذبح الاستقلال والكرامة، ففي فيلم (دم النخل) رصد المخرج نجدة أنزور بسالة الجندي السوري في الدفاع عن تدمر والآثار فيها، كما تحدث الفيلم عن عالم الآثار خالد الأسعد الذي قتل على يد العصابات الإرهابية المسلحة وهو يدافع عن كنوز المدينة رافضاً المغادرة وتركها للسلب والنهب، كما استحضر العمل شخصية الملكة زنوبيا وكأن كل منهما يؤدي دور الحارس لمدينة تدمر الأثرية. ومن أفلام المخرج جود سعيد التي حضر فيها المكان بقوة فيلم (مطر حمص) حيث ينتقي المخرج لحظة مهمة مرت على المدينة خلال عام ٢٠١٤ حين بقي في حمص القديمة عدد من المدنيين وينطلق في حكايته مؤكداً على التشبث بالحياة والإصرار على الاستمرار وسط الدمار والموت. ومن أفلام المخرج باسل الخطيب نذكر (دمشق حلب) الذي دارت أحداثه ضمن حافلة لنقل الركاب حيث أعتُبِر المكان هنا أحد الأبطال الرئيسيين وقد اختير الطريق التي تم المرور فيها بما يتلاءم وطبيعة الأحداث مع الإشارة إلى ألم المدينتين خلال الحرب.

قدم المخرج الراحل ريمون بطرس عدة أفلاماً كان محورها مدينته حماة كما هو حال فيلم (الطحالب)، كما احتفى شأنه شأنه العديد من المخرجين الآخرين بمدينة دمشق فقدم فيلم (حسيبة)، ومن الأفلام الأخرى التي احتفت بدمشق نذكر أيضاً فيلم (دمشق يا بسمة الحزن) إخراج ماهر كدو، وفيلم (حراس الصمت) للمخرج سيمر ذكرى والمأخوذ عن (الرواية المستحيلة . فسيفساء دمشقية) للكاتبة غادة السمان وتناول قضايا وأفكاراً من صميم البيئة الشامية في خمسينيات وستينيات القرن الماضي من خلال قصة فتاة تعيش ضمن أسرتها الدمشقية إلا أن عادات وتقاليد المجتمع تقيدها وتحاول خنق موهبتها في حين تسعى بإصرار لإقناع المحيطين بها بإبداعها، كما قدم المخرج سمير ذكرى فيلم (علاقات عامة) الذي انطلق به من عوالم تُظهر عمق الحضارة والأصالة في سورية مسلطاً الضوء على آثار وأوابد شامخة وطبيعة رائعة.

أما فيلم (اللجاة) إخراج رياض شيا فيذهب بعيداً في عمق منطقة اللجاة ذات الأرض البازلتية والموجودة في الجنوب السوري، إنه مكان تضج حجارته السوداء بالحياة لدرجة تكاد تنطق بما تحمل من قصص وحكايات وتاريخ وحب وأشواق ونضال، كما تحمل عادات وتقاليد وطقوس لها خصوصيتها وتفردها، وقد انتصر المخرج هنا إلى خصوصية البيئة ساعياً للكشف عنها حتى تكاد العديد من المشاهد أن تكون أقرب لمشاهد تسجيلية تعكس طبيعة الحياة هناك. وتكتسب قصة الفيلم أهميتها وخصوصيتها من المكان الذي جرت فيه، فقط انعكست طبيعة الأرض والبيئة بما تحويه من إرث وتقاليد على الحكاية وطبيعة الشخصيات، فظهر ما يخبئه كل من صمت الحجر وسكون الطبيعة من غليان وقدرة على المعاقبة، لقد انتصر المخرج للطبيعة والبيئة روحاً وحجراً.

الفهم الطوباوي للتاريخ

ترجمة: د.ثائر زين الدين

من يوميات الكاتب: حزيران ١٨٧٦ – تأليف: فيودوردوستويفسكي

بقينا طوال السنوات المئة والخمسين، التي تلت وفاة بطرس الأول نعيشُ في وئام مع الحضارات الإنسانيّة ونتقرّب من تاريخها وأفكارها، فتعلّمنا، بل عَلّمنا أنفسنا أن نحبّ الفرنسيين والألمان، قُل الجميع وكأنهم أخوتنا، بغض النظر عن أنّهم لم يحبونا قط، نعم وكأنّهم قد قررّوا ألا يحبّونها أبداً.

تمثلت كل إصلاحاتنا في مرحلة بطرس الأول: أننا وخلال ذلك الزمن الطويل أخذنا عن تلك الحضارات «توسيع» وجهة نظرنا ورؤيانا، اللتين لم نعرف أنهما وجدتا عند أي شعب من الشعوب في القديم أو في العالم الحديث..

إن روسيا ما قبل بطرس كانت قويّة وعمليّة على الرغم من أنها كانت تتطوّرُ ببطء، وقد أعدّت الوحدةَ، واستعدّت لربط أطرافها إلى المركز وقد استطاعت أن تفهم ما ستجلبه لها الجوهرة المخبّأةُ في أعماقها «الأرثوذكسيّة»، وهي المؤتمنةُ على حقيقة المسيح، وحقيقة الحقيقة لشكل المسيح الحق، وهذا ما يتم التعتيم عليه في كل المعتقدات الأخرى، وعند كل الشعوب إن هذه الجوهرة الأبديّة المرتبطة بروسيا، والموكلة إليها لحفظ الحقيقة – حسب وجهة نظر النخبة الروسية في ذلك الوقت – خلّصت ضمائرهم من ربقة الالتزام بأي تعاليم أخرى، والأكثر من ذلك أنهم فهموا في موسكو بأن كل اقتراب من أوروبّا يمكن أن يضر العقل الروسي وقد يخرّبه ويُمرض «الفكرة الروسيّة»، ويفرغ الأرثوذكسية من أصالتها، ويحمل روسيا إلى طريق الهلاك «على غرار الشعوب الأخرى كلها».

وهكذا فإن روسيا القديمة لم تكن مُحقّة، ومهّدتْ أن تُتّهمَ أمام الإنسانيّة بذلك لأنها خبّأت جوهرتها «أرثوذكسيتها» في قرارة نفسها عن أوروبّا، أي عن الإنسانيّة شأن أولئك المنشقين الذين يرفضونَ الأكل من آنية غيرهم، معتبرين أن ملاعقهم وفناجينهم إنّما هي أشياء مُقدّسة.. إن هذه المقارنة صحيحة لأن كثيراً من العلاقات الروحيّة والسياسيّة مع أوروبّا كانت قد نمت عندنا قبل بطرس الأوّل، ثمّ جاءت إصلاحات بطرس الأكبر لتؤكد أن لا بديل من توسيع وجهة نظرنا، ومن ثمّ كانت المأثرة الكبرى لبطرس في انفتاح روسيا على أوروبّا.

إنّ الجوهرة التي تحدّثتُ عنها أعلاه، هي نفسها التي تكلّمتُ عنها في أحد الأعداد السابقة من «اليوميّات»، والتي كنّا – نحنُ الطبقة المثقّفة في روسيا – قد أعدناها إليها بعد مئة وخمسين عاماً من غيابها، والتي يتوجّب على الشعب الروسي أن يتقبلها منا **Sine qua non** ، نحن الذين ننحني أمام حقيقته، «فمن دونها لا يمكن لوحدةٍ طبقيّة أن تتحقق أو تبدو ممكنة ودونها سيموتُ كل شيء ».

ما الذي تعنيه مسألةُ «توسيع الرؤيا أو وجهة النظر»؟ ما المقصود بها؟

إنها ليست تنويراً بالمعنى الدقيق للكلمة، وليست علماً، وفي الوقت نفسه ليست خيانة لبدايات الشعب الروسي الأخلاقيّة من أجل الحضارة الأوروبيّة: لا فهي ليست مسألة خاصة بالشعب الروسي وحده، وإن كانت تعبّرُ أساساً عن حبّنا الأخوي للشعوب الأخرى التي عايشناها على مدى قرن ونصف القرن، إنها حاجتنا لخدمةِ الإنسانيّة ولو على حساب مصالحنا الكبيرة الخاصة، إنها المصالحة بين حضارتينا مع إدراكنا عدم التوافق بين رؤانا وأفكارنا من جهة ورؤاهم وأفكارهم من جهة أخرى، بل قلْ ذواتهم الأوروبيّة، مع محاولتنا إيجاد الحقيقة التي تتضمنها فروع الحضارة الأوروبيّة، على الرغم من أن الكثير مما لمسناهُ لا يمكن أن نوافق عليه.. وفي النهاية هي الحاجة لأن نكون عادلين، وأن نبحث عن الحقيقة فحسب، وباختصار يمكن لهذا الأمر أن يكون البداية، أو الخطوة الأولى لدور جوهرتنا «أرثوذكسيتنا» في خدمة الإنسانيّة.

من خلال إصلاحات بطرس الأول توسّعت فكرتنا القديمة، الفكرة الموسكوفيّة الروسيّة وازددنا فهماً وتعمّقاً في حقيقة دورنا ومهمتنا الكبرى، وخصوصيتنا ضمن الإنسانيّة، ولم يكن باستطاعتنا أن ننكر أن مهمتنا ودورنا لا يشبهان ما لغيرنا من الشعوب، لأن كل خاصيّة شعبيّة تعيش لنفسها وفي نفسها، ونحُن نبدأ الآن عندما حان الوقت لأن نكون خدماً للمصالحة العامة، وهذا ليس شيئاً معيباً بل العكس، ففي هذا تكمُنُ عظمتنا حيث إن كل ذلك سيؤدي إلى الوحدة النهائيّة للإنسانيّة، لأن كل من يُريد أن يكون أعلى من الجميع في المملكة الإلهيّة عليه أن يكون خادماً، هكذا أفهمُ الرسالةَ الروسيّة في فكرتها الأساسيّة.. وكنتُ قد حددتُ بنفسي الخطوة الأولى لسياستنا الجديدة بعد بطرس الأوّل، وهي وحدةُ «الشعوب السلافيّة» تحت جناح روسيا، وهذا لن يكون احتلالاً أو باستخدام القوّة، وليس عبر القضاء على الخصوصيّات السلافيّة وإبدالها بالرّوسيّة، وذلك على طريق إعادة تأسيس علاقة وثيقة مع أوروبا ومع الإنسانيّة عامة، وإعطائهما الهدوء والراحة في النهاية بعد كل المآسي التي مَرّت بهما والتي لا تحصى.. آه طبعاً يمكن أن تضحكوا وتسخروا من هذه «الأحلام القديمة!»، ويمكنكم أن تقولوا – فيما يتعلّق بهذه الرسالة الروسيّة – إنّ ليسَ كل روسي يتمنّى انبعاث السلافيّة على هذه الأسس من أجل حريّة الشعوب الكاملة وتجدد روحها، وليس أيضاً من أجل أن تسيطر روسيا سياسياً على تلك الشعوب ومن ثمّ تقوّي قدراتها، وهذا ما تتهمنا به أوروبّا، أليسَ كذلك؟ وكأن الأمر تبرير لجزءٍ من الأحلام القديمة؟ ومن أجل هذا الهدف يصبح من البديهي أن تكون القسطنطينيّة لنا أولاً وآخراً...

يا إلهي كم هي مضحكة الابتسامة التي يمكن أن تظهر على وجه أي نمساوي أو إنكليزي لو توافرت لأحدهما أن يقرأ كل هذه الأحلام «المذكورة أعلاه»، وأن يصل في قراءته فجأةً إلى هذه الخاتمة الموضوعيّة:«القسطنطينيّة القرن الذهبي »، وهي أول مركز سياسي في العالم، فهل هذا احتلال؟.

سأجيب أنا: القرن الذهبي والقسطنطينيّة سيكونان لنا، ليس بهدف الاحتلال والإكراه، بل سيحدث هذا من تلقاء نفسه، لأن الوقت قد حان، وإذا كان لم يحن بعد فإنّه أصبح قريباً جداً، وهناك مؤشرات على ذلك.. هذا هو الحل الطبيعي، ويمكن القول إن هذه هي كلمة الطبيعة نفسها، وإذا لم يحصل ذلك من قبل فإن السبب يعود لعدم نضوج الوقت بعد.. يعتقدون في أوروبّا أن بطرس الأكبر «تركَ وصيّةً ما»، وما هذا إلا ورقة مكتوبة منة قبل البولونيين، ولو أن فكرة احتلال القسطنطينيّة خطرت لبطرس أثناء تأسيسه لمدينة بطرسبورغ، لتركها في حينها لعدة أسباب كما أتصوّر، حتى لو كان يمتلك القوّة الكافية للقضاء على السلطان، وذلك لأن الوقت لم يكن مناسباً، ومثل تلك الخطوة قد تجلب النهاية لروسيا.

إننا لم نتجنّب أيام بطرسبورغ التشيخونيّة بتأثير جيراننا الألمان، ومع أن هذا التأثير كان بصورةٍ ما مفيداً لنا لكنّه شلّ إلى حد كبير من التطوّر الروسي الواعد.. وقد تجنبنا تأثير اليونانيين– الأكثر رقّةً من الألمان الأغبياء – أيام القسطنطينيّة العظيمة الفريدة من نوعها، وهي التي ورثت الكثير من أقدم وأقوى الحضارات.. قد كانت تجمعنا مع اليونانيين نقاط التقاء كثيرة، خلافاً للألمان الذين لا يشبهوننا، والذين كانوا يشكّلون حاشية القيصر، وكان باستطاعتهم – لو طال بهم الأمر – أن يطوّقوا العرش، فينالون الحظ الأوفر من التعليم ويصبحون علماء قبل الروس، ولا يخيّبونَ أملَ خلفاء بطرس على العرش فحسب، بل أمل بطرس نفسه، طاعنين إياه في نقطة ضعفه الوحيدة، وهي قدرتُهُ على الملاحة ومعرفتُهُ بها، وبكلمة واحدة: لكانوا قد امتلكوا روسيا سياسيّاً ونقلوها إلى طريقٍ آسيوي ما، أي إلى انطوائيّة كاملة، وهذا لم يكن باستطاعة روسيا تحمّله.. وكان يمكن أن يؤدي إلى فقدان روسيا قوميّتها وخصوصيّتها، فيصبح الروسي القوي معزولاً في شماله الثلجي الحزين، ويمسي مادةً لخدمة «تسارغراد».

ويصبح الجنوب الروسي كلّه تحت سيطرة اليونانيين، وكان يمكن أن تنقسم الأرثوذكسيّة إلى فئتين: «التسارغراديّة المحدثة والروسيّة القديمة..» باختصار كل ذلك لم يكن في وقته، أما الآن فالأمر مختلف، فقد أصبح لروسيا وجودها وحضورها في أوروبا، وهي الآن متعلمة، والأمر الرئيسي أنها عرفت مكامن قوّتها، وأمست قويّةً ومؤهّلةً لأن تكون أقوى.. وأدركت أن «تسارغراد» يمكن أن تكون لنا، ولكن ليس عاصمةً لروسيا.. لو أن بطرس الأول قد احتل «تسارغراد»، فما كان بإمكانه إلا أن ينقل عاصمته إليها، وهذا أمرٌ مدمّرٌ لروسيا لو حدث، لأن هذه المدينة ليست في روسيا ولا يمكن أن تكون روسيّة.. وقد تجنّب بطرس هذه الغلطة، لكن ذلك لا يعني أن حلفاءَها يستطيعون فعل ذلك.. وحتّى لو سَلّمنا أن تسارغراد يمكن أن تكون لنا ولكن ليس العاصمة لروسيا، فإنها بطبيعة الحال لا يمكن أن تكون عاصمة للسلافيّة مثلما يحلم بعضهم.. إنّ السلافيّة دون روسيا سوف تنهي صراعها مع اليونانيين، حتى لو استطاعت أن تجمع من أجزائها وحدةً سياسيّةً، وهي في كل الأحوال لا تستطيع أن تورّث القسطنطينيّة لليونانيين وحدهم، وأن تعطيهم ذلك الموقع المهم من الكرة الأرضية، لأن ذلك سيكون أكبر من حجمهم بكثير. آه، أما حين تكون روسيا على رأس السلافيّة فسيكون الأمر، مختلفاً، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا الأمر مفيد؟ ألا يؤدي ذلك إلى سيطرة السلافيين السياسية على روسيا؟

إنّ هذا ما لا نريده أبداً!

من أجل ماذا، وبأي حق أخلاقي تطالب روسيا بالقسطنطينيّة؟ واستناداً إلى أي أهدافٍ عُليا يمكن أن تطلبها من أوروبّا؟.

إن جوابي عن ذلك: هو أن روسيا تُعدّ زعيمة وراعية حامية للسلافيّة، وقد أوكل هذا الدور لها منذ أيام إيفان الثالث، الذي جسّد هذا الأمر في الشعار «التسارغرادي» النسر ذي الرأسين، الذي لم يظهر إلا في أيام بطرس العظيم عندما وجدت روسيا في نفسها القوّة لتنفيذ مهمتها وأصبحت الراعية الفعلية والوحيدة للسلافيّة وللشعوب التي تعتنقها.. إن هذا هو السبب الذي أعطى لروسيا الحق في «تسارغرادالقديمة»، وكان من الممكن لهذا السبب أن يكون مفهوماً وغير مزعج لأكثر السلافيين غيرةً على استقلالهم وحتّى لليونانيين أنفسهم.. نعم وبذلك كان يمكن أن يتحدد الجوهر الأساسي لتلك العلاقات السياسيّة، التي كان يجب على روسيا أن تنتهجها مع كل الشعوب الأرثوذكسيّة– السلافيّة أو اليونانيّة وأن تكون راعية وزعيمة لهذه الشعوب ولكن ليس مالكة لها، أن تكون أمّاً لها وليسَ سيّدةً عليها، حتى إذا ما أصبحت حاكمةً لهذه الشعوب، ولكن ليس مالكة لها، فسيكون الأمرُ نزولاً عند رغبتها فحسب، مع الحفاظ على كل ما تحددُ استقلاليتها وذاتيتها.

وهكذا يمكن أن ينظم إلى هذا الاتحاد يوماً ما ليس فحسب الأرثوذكس السلافيين الأوروبيين! ولو حصل ذلك فعلاً لكانوا قد رأوا بأن الوحدة تحت حماية روسيا ليست إلا توطيداً لاستقلاليّة ذواتهم كل على حدة.. فمن دون هذه القوّة الموحدة الجبارة يمكن لتلك الشعوب أن تنجز إلى نزاعات وصراعات متبادلة فيما بينها، حتى لو استقلت سياسياً عن المسلمين والأوروبيين الذي تخضع لهم.

سيقولون لي لماذا تتلاعب بالكلمات: «ما هي الأرثوذكسية؟، وما هي هذه الفكرة الخاصة والحق في وحدة الشعوب السلافيّة؟ أليس ذلك هو اتحاد سياسي بحت مثله مثل غيره من الاتحادات، حتى لو على أسس أوسع، كالولايات المتحدة الأميركيّة، أو أوسع من ذلك؟» هذا هو السؤال الذي يمكن أن يطرح وأجيب عليه بالنفي.. إن هذا الاتحاد ليسَ كذلك، وليس لعباً بالكلمات، لكن سيكون فعليّاً شيئاً خاصاً لم يسمع عنه من قبل، ولن يكون اتحاداً سياسيّاً فحسب، وليس من أجل الاحتلال السياسي والعنف أبداً، مثلما تتصوّر أوروبّا، وليس باسم التجارة والفوائد الخاصة والأبديّة، وكل الرذائل المؤلّهة تحت شعار المسيحيّة الرسميّة، والتي لا يثق بها سوى الرعاع من عامة الناس فحسب.

بل سيكون الأمرُ تشييداً فعلياً للحقيقة المسيحيّة الباقية في الشرق، وتشييداً حقيقياً جديداً، لصليب المسيح، والكلمة الفصل للأرثوذكسية التي تقف روسيا على رأسها منذُ زمنٍ بعيد.. وسيكونُ إغراءً لكل الأقوياء الذين انتصروا في العالم حتى الآن، ونظروا دائماً لمثل هذه «التوقعات» بالاحتقار والسخرية دون أن يفهموا ضرورة الثّقة بالأخوّة الممكنة بين الناس، وبالمصلحة العامة للشعوب في اتحادٍ مبني على أسس خدمة الإنسانيّة، وأخيراً في إعادة الناس إلى الأسس الحقيقيّة لتعاليم المسيح.

وإذا عدّوا الاعتقاد «بالكلمة الجديدة»: أن تكون روسيا على رأس وحدة أرثوذكس العالم «طوباويّاً»، فإن ذلك يستدعي السخرية فعلاً، ودعهم إذن يضمونني إلى هؤلاء الطوباويين.

وقد يعترض آخرون ويقولون إن هناك طوباويّةً أخرى وأشياءَ لا يمكن أن تحدث إلا في الحلم، ومنها أن يسمح الآخرون لروسيا أن تصبح على رأس السلافيين يوماً ما وتدخل القسطنطينيّة.

صحيح ربّما هذه أحلام... لكن روسيا قويّة، ويمكن أن تكون أقوى بكثير مما تتصوّر هي نفسها، ألم تُشيّد قوى عاتية أخرى أمام أعيننا وعلى مدى عشرة الأعوام الأخيرة وانتشرت في أوروبّا ثمّ اختفت مثل الغبار وكنّستها القدرة الإلهيّة وشيّدت مكانها إمبراطوريّة جديدة قويّة إلى درجة لم يكن لها مثيل على الأرض؟ وهل كان باستطاعة أحد أن يتنبّأ بذلك مقدّماً؟.

فإذا كان لمثل هذه التحولات أن تحدث في زماننا وأمام أعيننا فهل بإمكان العقل الإنساني أن يتنبّأ بشكل صحيح بمصير المسألة الشرقيّة؟ في الوقت الذي تبرز فيه أسس واقعية تدعو لليأس بيوم القيامة وبوحدة السلافيين؟ هل كان هناك من يعلم ما يريد الله فعله؟.